معالم في أصول الدعوة

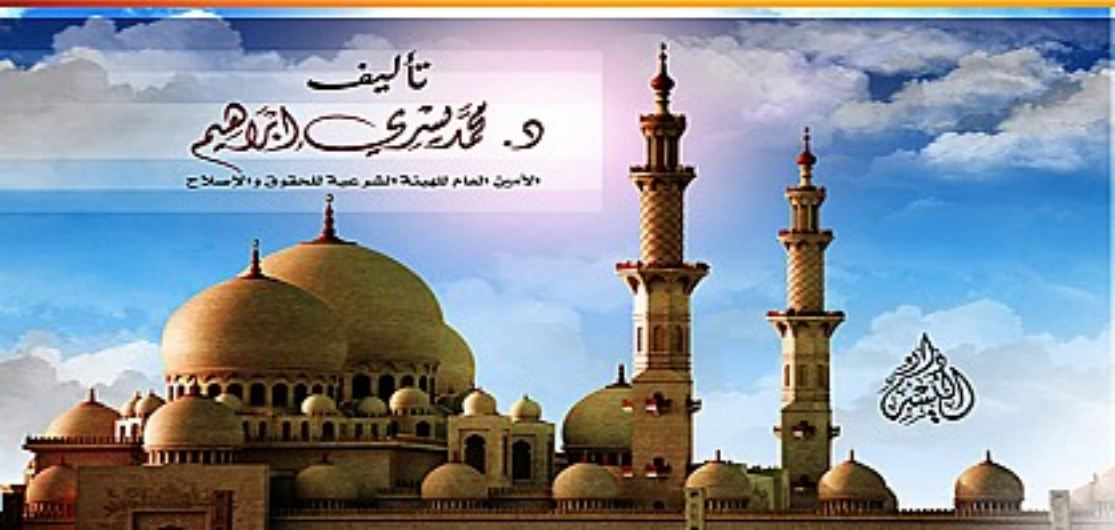

معالم
في أصول الدعوة

معالم
في أصول الدعوة

تأليف

د. محمد يسري إبراهيم

دار البشير

رقم الإيداع

٢٠١٣/١٧٨٧

ترقيم دولي

978-977-6406-17-9

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الخامسة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

إبراهيم، محمد يسري

معالم في أصول الدعوة

تأليف محمد يسري إبراهيم

القاهرة، دار اليسر ٢٠١٥م.

٢٣٠ص، ١٧سم × ٢٤سم.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٤٠٦١٧٩

١- الإسلام - دعوة

أ- العنوان

٢١٣

دار اليسر للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية. يشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى. بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها. دون إذن خطي من الناشر.

٢٠ ش عبد العزيز عيسى، المنطقة التاسعة

الحي الثامن، مدينة نصر، القاهرة.

تليفون: ٠٢ ٢٤٧٠٩٢٦٩ محمول: ٠١٠٦٢٢٧٦٢٠٨

فاكس: ٠٢ ٢٤٧١٤٨٠١ خدمة العملاء: ٠١١١٨٠٠٦٠٦٠

www.dar-alyousr.com

Email : info@dar-alyousr.com

معالم في أصول الدعوة

a l y o u s r @ g m a i l . c o m

بسم الله الرحمن الرحيم

صدر للمؤلف

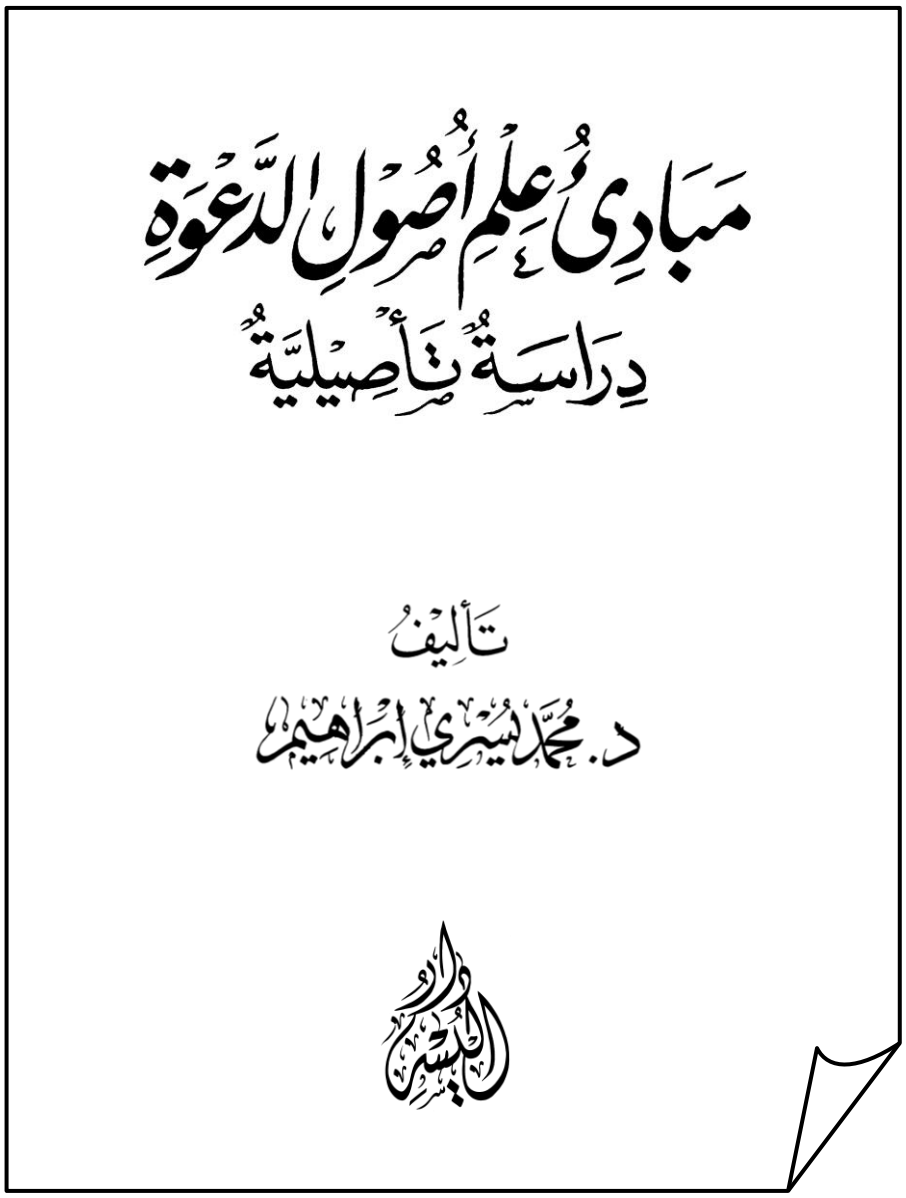
مبادئ علم أصول الدعوة
دراسة تأصيلية
تأليف
د. محمد يسري إبراهيم
دار البشير

طريق الهداية

مبادئ ومقدمات علم التوحيد عند أهل السنة والجماعة

تأليف

د. محمد يسري إبراهيم

دار اليسر

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمدَ لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، مَن يهده الله فهو المُهتد، ومن يُضللْ فلن تجدَ له وليًّا مرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آلهِ وصحبهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا. **أما بعد**:

فإن الدعوة إلى الله تعالى من أعظم القُربات وأجلّ المُهمات، جعلها الله تعالى وظيفةَ أنبيائه، ومَهمة أوليائه، وسبيل أصفيائه.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف:١٠٨].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا

إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[الأحزاب:٤٥-٤٦].

والدعوة إلى الله قولًا أحسن الأقوال، والدعوة إلى الله عملًا أحسن الأعمال، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[فصلت:٣٣].

وأفضل الخلق بعد المرسلين الذين يقومون مقامهم بالدعوة والتذكير في أُممهم، ويخلفونهم بالبشارة والنِّذارة والتبليغ في أقوامهم، يُصلحون من أمر الدِّين ما فَسَد، ويُحيون من معالم السُّنن ما اندثر، هُم أولى الناس بالنبيين، وأحرى الورى بدعاء إمام المصلحين ﷺ بنضارة الوجوه والفقه في الدِّين، أولئك الأقلُّون عددًا، والأعظمون عند الله أجرًا، فتَح الله بهم قلوبًا غُلفًا، وبَصَّر الله بهم أعينًا عُميًا، وأسْمَع الله بهم آذانًا صُمًّا، يسوقون الحياة والأحياء إلى الله تعالى سوْقًا رفيقًا، يوقظون نوازع الخير، ويزكون وازع التقوى.

أولئك الدعاة إلى الله، على بصيرة بالإسلام عقيدة وشريعة، عِلمًا وعملًا، دينًا ودولةً، على بصيرة بالناس على تنوع أصنافهم، واختلاف أحوالهم، على بصيرة بالدعوة وأصولها، وطرائقها وأسبابها، ووسائلها ومُعوقاتها.

يقيمون بُنيان دعوتهم على أصول راسخة، ومنطلقات ثابتة، وملامح وسمات بيِّنة، يهتدون بهدي الأنبياء في الدعوة عامة، ويقتفون أثر المصطفى ﷺ وأصحابه خاصة، يُحققون توحيدًا وإخلاصًا، وينشرون علمًا وفقهًا، ويتبعون أسلافًا وآثارًا، وعلى أساس من ذلك كله يُربُّون جيلًا، ويقيمون معروفًا، ويهدمون مُنكَرًا، ويجاهدون عدوًّا، ويجمعون الدِّين علمًا وعملًا.

وقد كان من شأن الدُّعاة في أول الأمر أن يتلقَّوا عِلم الدعوة تأصيلًا وتنظيرًا مع عملها ممارسةً وتطبيقًا، وذلك بالمشافهة للشيوخ تارة، وبالممارسة بحضرة ورعاية الكبار تارة أخرى.

ولم تقُم بالأسلاف حاجة إلى إفراد علم الدعوة بتصنيف وتأليف، ثم تطاول العهد، واتصل-عن زمن وهدي السلف- البُعد، وانحسر سلطان الإسلام وتقلَّصت دولته، وخلفت خُلوف أضاعت الواجبات، واتبعت الشهوات، ووقعت في الشبهات، وأخلدوا إلى السُّبَات، فلم يستفيقوا إلا على استلاب مُلكهم وتقويض خلافَتِهم !

وهَبَّ المصلحون الغرباء، والرواد من الدعاة والعلماء، يَحدون الأُمة من جديد، ويبعثون فيها روح التجديد، فكتب الفضلاء يشخَّصون الداء ويَصِفون الدواء، ومسَّت الحاجة إلى تدوين علم الدعوة تأصيلا وتنظيرًا؛ كشفًا لما قد يحيط بأصول الدعوة من جهالة، وتوضيحًا لما قد يعتري مفاهيمها من غموض، وتصحيحًا لما قد يطرأ على مناهجها ووسائلها من اضطراب.

وما من شك أن من حق الناس على الدعاة في كل عَصْر ومِصْر أن يُبينوا لهم أصول دعوتهم، وأن يُجَلُّوا لهم عظيم غايتهم، وأن يوضحوا لهم نبيل أهدافهم وصحيح وسائلهم، كل ذلك ببيان يفهمه العامة قبل الخاصة، ويدركه القَرويُّ قبل الحَضريِّ، إذ بقدْر وضوح الغايات ونُبل الأهداف وصحة الأصول ومشروعية الوسائل تتحقق الاستجابة، ويُنتَفع بالذكرى.

ولقد قامت الجهود العلمية المعاصرة على قدم وساق تخدم قضية الدعوة، ولا جرم أن كان علم الدعوة في العصر الحديث في أوله قاصرًا محدودًا، غلبت فيه العاطفة على التقعيد، ثم هو يوشك أن تجتمع أوصاله وتأتلف أجزاؤه، ويقوى فيه جانب التأصيل، ولقد خرجت كتب تحمل اسم «أصول الدعوة»[1]،

(١) انظر -على سبيل المثال-: «أصول الدعوة» لفضيلة الدكتور/ عبد الكريم زيدان.

وأخرى تحمل اسم «فقه الدعوة»[1]، وصُنّفت مداخل لعلم الدعوة -أيضًا-[2]، ووجهت رسائل للدعاة[3].

وغير ذلك من الرسائل والبحوث المفيدة.

وفي هذه الورقات محاولة جديدة - تبني على ما سبقها وتضيف - لتحديد وتجريد أهم تلك الأصول والمنطلقات التي قام عليها منهج أهل السنة والجماعة في الدعوة والإصلاح، وذلك بالنظر في تراث الدعوة، واقتباس كلام أئمة الدعاة -قديمًا وحديثًا حينًا- وبالنص عليه -أحيانًا أخرى- من غير كثير شرح وتطويل، ولا تفصيل في ذكر الدليل.

وكان من غرض تسويدها: إيجاد أرضية مشتركة بهذه الأصول، منها ينطلق الدعاة في دعوتهم، ويترابطون في مَسيرتهم، فيغدو اتفاقهم على هذه الأصول مَدَد قوتهم، وعنصر ائتلافهم المُمهِّد لتعاونهم على تحقيق أهداف الأُمة، التي من أولها وأوْلَاها: الاعتصام بحبل الله، والاجتماع على الدعوة إلى الله، إخوانًا مؤتلفين، لا أوزاعًا متخالفين.

وحريٌّ بالبيان أن هذه الأصول لا تُعبِّر عن توجه بعينه، ولا تُنَظِّر لمدرسة دعوية بخصوصها، كما لا تُعرِض عن حق وحكمة لغرض شخصي، أو انتماء حزبي؛ بل هي لأهل الإسلام عامة، ولأرباب الدعوة خاصة.

والاجتماع على هذه الأصول والسمات من شأنه أن يضبط الأولويات في مسيرة الدعوات، وأن ينشئ معيارًا للرشد في الممارسة والتطبيقات، وأن يقيم

(١) انظر -على سبيل المثال-: «فقه الدعوة إلى الله» لفضيلة الدكتور علي عبد الحليم محمود.

(٢) انظر -على سبيل المثال-: «المدخل إلى علم الدعوة» لفضيلة الدكتور محمد أبي الفتح البيانوني، و«مدخل إلى علم الدعوة» لفضيلة الدكتور عبد الرب نواب الدين.

(٣) انظر -على سبيل المثال-: «رسالة إلى الدعاة» لفضيلة العلامة الشيخ ابن عثيمين، وأخرى مثلها لسماحة العلامة الشيخ ابن باز رَحِمَهُمَا اللهُ.

علاقة راشدة بين الدعاة، سواء أكانوا أفرادًا أم جماعات.

وأخيرًا؛ فإنها محاولة لإسداء النصح الواجب للأئمة والهداة من كل اتجاه، في وقت دَعت فيه الضرورة الشرعية إلى التماسك والائتلاف، والتعاون لتحقيق الأهداف، دفعًا عن ثوابت الأمة، وحفظًا لقواعد الملة.

والله تعالى من وراء القصد، وهو يهدي السبيل، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب، وصلى الله وسلم على خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

القاهرة ـ غرة المحرم
عام ١٤٢٤هـ

مقدمة الطبعة الرابعة

إن الحمدَ لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، مَن يهده الله فهو المُهتد، ومن يُضللْ فلن تجدَ له وليًّا مرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آلهِ وصحبهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا. **أما بعد**:

ففي خاتمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب وضعت القلم ولم أبلغ -بعدُ- غايتي، ولم أقصد من البحث حاجتي، ورجوت الله تعالى أن يعين على العود على ما ابتدأناه -بحوله وفضله- فألحقنا «الحكمة» ومن بعدها «الربانية» كأصول للدعوة الإسلامية، ثم يسر الله تعالى وأعان فأضفنا في هذه الطبعة

الرابعة «البلاغ المبين» و «إدارة الدعوة» و «رعاية الأولويات»، لتبلغ هذه الأصول والقواعد سبعة عشر، وها أنذا أضع القلم وفي النفس أشياء وحاجات، والله تعالى وحده المسئول أن يرزقنا وسائر دعاة الإسلام بلوغ المأمول، من تحصيل الرضا والقبول، وادخار الأجر، ومغفرة الوزر.

ثم إن الحاجة ماسة اليوم - وقد فتح على بلاد العرب والمسلمين ما فتح من تنسم عبير الحرية والتغيير- إلى مراجعة شاملة لمسيرة الدعوة الإسلامية في مرحلتها الماضية، ووضع خطط رشيدة للمرحلة الآتية.

ولعله من التوفيق أن يوضع ميثاق للدعاة، يجمع كلمتهم ويوحِّد منهجهم، وتأتلف عليه طوائفهم وتستقيم عليه طرائقهم.

ومن النصح الواجب في هذه المرحلة المهمة في تاريخ الأمة: أن تجتمع الجهود على سد الثغور التي ستفتح، والمواقع التي ستشغر في سائر المجالات، ولا شك أن أبوابًا كثيرة قد فتحت وهي تنتظر من يلجها فيُحكِم أمرها ويحسن عملها، ويضرب للدعوة الإسلامية فيها بسهم، ويبرهن على مصداقية الدعاة، وقدرتهم على القيادة والتأثير، مع قدرتهم على التعليم والتوجيه.

وهذا يؤكد مرة أخرى على أهمية الاتساع والتمدد الدعوي المنضبط، ومواكبة العمل التربوي المركز للانتشار والانفتاح، بما ينبه على أهمية إيجاد الكفاءات والصفوف البديلة.

وإذا كانت معركة الهدم والإبطال لباطلٍ سياسي أو فكري أو اجتماعي - مضنية وقاسية، فإن معركة بناء الحق وتشييد معالمه ومواجهة المكائد

والأخطار المحدقة سوف تكون أشقَّ وأصعبَ؛ لما عرف من سهولة الهدم وصعوبة البناء!

وهذا يستوجب عُدَّة من الربانية، والصدق، والإخلاص، والاجتهاد، والتضحية، والانضباط، والالتزام بالمنهاج الصحيح، والثبات في مواجهة أعداء الداخل والخارج معًا، مع التدرع بالصبر والتحلي بالصفح.

وَمَـنْ يَتَبَـيَّنْ أنَّ لِلصَّـفْحِ مَوْضِـعًا مِنَ السَّيْفِ يَصْفَحْ عَنْ كَثِيْرٍ وَيَحْلِمِ

اللّٰهُمَّ بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا حكِّم في الأمة كتابَكَ وسنةَ نبيِّكَ ﷺ، وَوَلِّ أمورَنا خيارنا ولا تُوَلِّ أمورَنا شرارنا واجعل ولايتنا فيمن خافك واتقاك واتبع رضاك برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللّٰهُمَّ اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

القاهرة الخميس ٤ رمضان المعظم ١٤٣٢هـ
الموافق ٤ أغسطس ٢٠١١م

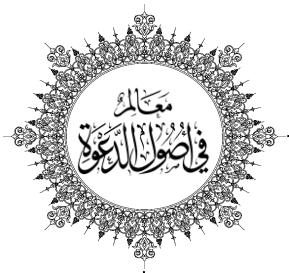

الأصل الأول

1

الربانية

الربانية

الربانية هي خصيصة الدعوة الكبرى، وقاعدتها العظمى، ولطيفتها السارية في جميع معالمها، وعينها الجارية في كل أعمالها، وروحها التي تحمل الناس على قبولها.

ذلك أن الدعوة هي دعوة الله، قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [الرعد: ١٤].

وهي دعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[الحج:٦٧]، **وقال** ﷻ : ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف: ١٠٨].

فالدعوة في موضوعها ومنهجها ودستورها من الله وعن الله، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، **وقال سبحانه:** ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[النجم:٣-٤].

والآمر بالدعوة هو الله تعالى، والمبلغ هو رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

وفي الحديث: «**ما من الأنبياء من نبيٍّ إلا قد أُعطِيَ من الآيات ما مثلُه آمَن عليه البشرُ، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أَوحَى الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(١).

» **فهي دعوة ربانية في مضمونها**: مبرأة من كل معاني النقص والظلم والخلل، تجمع جميع معاني الكمال والتمام، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، وقال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

» **وهي ربانية في منهجها**: تجمع إلى الاقتباس -من مشكاة الوحيين- الوقوف عند نصوصهما تحكيمًا وتسليمًا، وانقيادًا وتعظيمًا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾[الأحزاب: ٣٦].

» **وهي ربانية في غايتها**: يطلب أصحابها أجرهم من الله، لا يسألون سواه، قال ﷻ: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾[سبأ: ٤٧]، وقال ﷻ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي﴾[هود: ٢٩].

وهي ربانية في وسائلها وأساليبها: تتعامل مع السنن الربانية الجارية في الإصلاح والتغيير، فتسايرها، ولا تعاندها، قال تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[فاطر: ٤٣].

(١) أخرجه: البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب «كيف نزل الوحي..»، (٤٩٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب «وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ»، (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

» **وهي ربانية في آثارها على الداعية ودعوته**: فأما الداعية فتخلِّيه عن الآفات، وتحلِّيه بجميل السمات، وتمنعه من مخالفةٍ بين القول والعمل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

وتزجره عن علمٍ لا نفع فيه، وعن عملٍ لا إخلاص فيه، فلا يتحول إلى داعيةٍ لنفسه! ولا يتخذ الدعوة شبكةً لصيده!

وتحول بينه وبين إيثار الدنيا، والركض خلف متاعها، وما يُذمُّ من أعراضها.

- فهي تحلِّيه بحلية الدعوة إلى الله بالقول والقدوة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت: ٣٣].
- وهي تزيِّنه بزينة العلوم النافعة، والعبادة الخاشعة، والأعمال الصالحة.
- وهي تجمِّله بالأخلاق المستقيمة، والآداب الكريمة، والسَّمت الصالح، والهدي الظاهر، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].
- وهي تصل قلبه بالله فيَرق ويخشع، وتحرك جوارحه بالفرائض والنوافل فتلين بالطاعات وتخضع، وتقف بكيانه عند حدود ما أنزل الله فيُطيع ويَسمع.

الربانية تصل قلب الدعوة الداعية بالله فيَرق ويخشع، وتحرك جوارحه بالفرائض والنوافل فتلين بالطاعات وتخضع، وتقف بكيانه عند حدود ما أنزل الله فيُطيع ويَسمع.

- وأخيرًا؛ فهي ترتقي بالدعاة الربانيين إلى مرتبة عُليا بعد النبيين، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟

مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

والربانية في الدعوة تتجلى أهميتها في جوانب عديدة، منها:

» الربانية تضبط الاجتهادات:

الربانية في الدعوة تهبها وعيًا واعيًا، واجتهادًا راجحًا، فتقدم مصلحة الأمَّة على مصلحة جماعة الدعوة.

الربانية في الدعوة تهبها وعيًا واعيًا، واجتهادًا راجحًا، فتقدم مصلحة الأمَّة على مصلحة جماعة الدعوة، وترجح مصلحة الدعوة على مصلحة الداعية، وتستبدل الجماعية بالفردية، وتتحول عن الفوضوية والعصبية، وتتنحى عن الارتجالية، وتنأى عن الغثائية.

» الربانية قاعدة الوحدة والاجتماع:

فالدعوة الربانية تنظر في أسباب الفرقة فتنفيها، وتبحث عن أسباب الوحدة فتقوّيها، تُقدِّم إفشاء السلام بالقلب واليد واللسان، وتنهى عن فساد ذات بين الأحباب والإخوان، تعتمد سياسة الجسور المفتوحة، وتتعامل بأسلوب الأيدي الممدودة.

» الربانية ضمانة من الفتور والضعف:

وكيف يفتر داعية وكلام الله تعالى جليسه، وحديث النبي ﷺ أنيسه؟!

وكيف يضعف داعية والذكر غذاؤه ودواؤه؟!

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُمُ ... وَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَنَنْتَكِسُ

وكيف يبأسُ أو ييأسُ من كان الدعاء سلوته، وقيام الليل لذته؟!

قال أبو سليمان الداراني: «أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا»[1].

وكيف يضلُّ أو يزلُّ من كانت التقوى سيرته وسريرته؟ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٩].

» الربانية أساس الوسطية والتوازن:

□ **أقدر الدعاة على التوازن**: ربانيٌّ يرعى في نفسه وأهله وولده مقتضيات قبضة الطين ونفخة الروح.

□ **وأولى الدعاة بالتوازن**: ربانيٌّ لا يختلُّ ميزانه بين فهم واقعه ومراعاته، وبين الإعراض عنه وإهماله.

□ **وأجدر الدعاة بالتوازن**: ربانيٌّ لا يضطرب ميزانه بين الولاء للحق وتقديسه، واحترام العالم وتقديره.

□ **وأحق الدعوات بالتوازن**: دعوةٌ ربانية لا تُخِلُّ بواجبي البلاغ المبين والسعي للتمكين، ولا تفرط في إنكار منكرات القبور والقصور، ولا تخلط في سعيها بين الوسائل في الدعوة والغايات.

ومنهج الربانية في الدعوة والداعية يعتمد على الركائز والمقومات الآتية:

أولاً: الإيمان الصحيح والتوحيد الخالص:

إذ الإيمان والتوحيد هما أول حق الله على العبيد، والعقيدة الربانية هي

(١) «إحياء علوم الدين»، للغزالي (١/ ٣٥٨).

أول ما يدعى إليه الناس لتحررهم من عبادة كل معبود من دون الله، ولتكون العبادة لله وحده بما شرع لا بما ابتُدِع.

العقيدة الربانية هي عقيدة شمولية تعتني بعبادات القلب والقالب، وباستقامة الظاهر وإخلاص الباطن.

وهذه العقيدة الربانية هي عقيدة شمولية تعتني بعبادات القلب والقالب، وباستقامة الظاهر وإخلاص الباطن، تسعى لتأصيل عرض تفاصيلها، وتفصيل الرد على مخالفيها.

» وهذه العقيدة الربانية هي عقيدة فعَّالة مؤثرة، فليست مجرد قول يقال، ولا دعوى تُدَّعى من غير فِعال، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

» فهي عقيدة تُحيي القلب بالإيمان بالله، وتشغل البدن بمرضاة الله، وتفتدي بالأرواح دين الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

» وهي عقيدة تربط بين أبنائها بوشيجة فريدة لأجلها هجر الأنبياء أوطانهم، وتركوا أرضهم وديارهم، وعاشوا غرباء مع أتباعهم. تلكم الوشيجة هي الحب في الله.

أَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ ... إِذَا افْتَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمِ

» وهي عقيدة ربانية تورث المؤمن عزة وفخارًا، وتملأ القلب يقينًا

واستقرارًا، قال ﷻ: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩]، وقال ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

وَمِمَّـــا زَادَنِي شَرَفًـــا وَتِيْـــهًا ... وَكِـدْتُ بِأُخْمُصِـــي أَطَـأُ الثُّرَيَّـا
دُخُولي تَحْتَ قَوْلِـك: يَـا عِبَـادِي ... وَأَنْ أَرْسَـــلْتَ أَحْمَـــدَ لِي نَبِيًّـــا

فليســت العقيــدة الربانيــة محــل مساومة، ولا مراجعة، ولا مجادلة، وإنمـا هو التحكيم مع التسليم والتعظيم، قـال ﷻ: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١]، وقـال ﷻ: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فليست العقيدة الربانية محلّ مساومة، ولا مراجعة، ولا مجادلة، وإنما هو التحكيم مع التسليم والتعظيم.

ثانيًا: الاحتفاء بالفرائض والاحتفال بالنوافل:

أُسُّ الربانية عبادة رب البرية، والتقرب إليه بالعبادات المرضية، وأحبها وأولاها وأوجبها فرائض الصلاة والصيام والزكاة والحج، والذكر والشكر، والبر والصبر، والخوف والرجاء، والمحبة والدعاء، ثم نوافلها وفضائلها، وفي الحديث القدسي: «**وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترَضتُ عليه، وما يـزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سـمعه الذي يسـمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يَبطِش بها، ورِجلَه التي يمشي بهـا، وإن**

سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذَنَّه»[1].

وهذه العقيدة الربانية تُورث عبادة ربانيّة تربط العبد بربه ﷻ، وتزيد من مراقبته، وتجعله إلى طاعته مسارعًا، وإلى جنته مسابقًا.

من معالم العبادة الربانية:
- المسارعة والمسابقة.
- الجد والاجتهاد.
- الدوام والاستمرار

وفقه العبادة الربانية يعتمد على دعائم كثيرة، منها:

» المسارعة والمسابقة:

قال ﷻ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال ﷻ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١].

وفي الحديث: «**التُّؤَدَةُ في كلِّ شيءٍ خيرٌ إلا في عمل الآخرة**»[2].

فالرباني لسان حاله يقول: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

» الجد والاجتهاد:

قال تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧، ١٨]، وقال سبحانه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

فالرباني لو قيل له: إنك تموت غدًا ما قدر أن يزيد في العمل شيئًا.

---

(١) أخرجه: البخاري، كتاب الرقاق، باب «التواضع»، (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أبو داود، كتاب الأدب، باب «في الرفق»، (٤٨١٠)، والحاكم في «المستدرك»(١/ ١٣٢)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ١٩٤)، من طريق مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه.

» الدوام والاستمرار:

قال ﷻ: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]، وفي الحديث القدسي: «**وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**»(١)، وفي الحديث: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»(٢).

الرباني موصول بعبادة الله في الخَلوة والجَلوة، والحضر والسفر، والصحة والمرض، والغنى والفقر.

فالرباني موصول بعبادة الله في الخَلوة والجَلوة، والحضر والسفر، والصحة والمرض، والغنى والفقر.

» التنوع والشمول:

قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وفي الحديث: «**من أَنفق زوجين في سبيل الله نُودِيَ من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعِيَ من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعِيَ من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعِيَ من باب الريَّان، ومن كان من أهل الصدقة دُعِيَ من باب الصدقة**»(٣).

وفي الحديث: «**أربعون خصلةً؛ أعلاهُنَّ مَنِيحَة العَنْزِ**(٤)**، ما مِن عامِلٍ يعمَلُ**

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه: البخاري، كتاب الرقاق، باب «القصد والمداومة على العمل»، (٦٤٦٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب «فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره..»، (٧٨٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه: البخاري، كتاب الصوم، باب «الريان للصائمين»، (١٨٩٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب «من جمع الصدقة وأعمال البر»، (١٠٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) المنيحة: الدابة الحلوب تعار للانتفاع بلبنها.

بخَصلةٍ منها رجاءَ ثوابِها وتصديقَ موعودِها إلَّا أدخَلهُ اللهُ بها الجَنَّةَ»[1].

فالرباني يأخذ حظّه من أنواع العبادة كافة، ويضرب بسهم في ألوان الخير عامة.

» استدراك ما فات:

في الحديث: «**من نامَ عن حِزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتِب له كأنما قرأه من الليل**» [2].

«وكان ﷺ إذا نام من الليل أو مرض صلَّى من النهار ثِنْتَي عشرة ركعة»[3]

» الحذر من التهاون والتفريط والانقطاع:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل:٩٢]، وقال تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١].

وفي الحديث: «**لا تكُن مِثل فلان؛ كان يقوم الليل فترك قيام الليل**»[4]، وفي الحديث: «**فاتقوا النَّار ولو بشقِّ تَمرةٍ**»[5].

---

(١) أخرجه: البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب «فضل المنيحة»، (٢٦٣١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه: مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب «جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض»، (٧٤٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب «جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض»، (٧٤٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه: البخاري، كتاب الجمعة، باب «ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه»، (١١٥٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه: البخاري، كتاب التوحيد، باب «كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء»، (٧٥١٢)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب «الحث على الصدقة ولو بشق تمرة»، (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

فالرباني يكلف من العمل ما يطيق، ويجعل عمله ديمة فلا ينقطع.

مَــنْ لي بِمِثْــلِ سَــيْرِكَ المــدَلَّلِ تَمْشِي ـ الهُوَيْنَـا وَتَـجِي فِي الْأَوَّلِ

والرباني يعلم أن ركني القبول: الإخلاص لله تعالى، واتباع الرسـول ﷺ، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، وقال تعـالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

وفي الحديث: «**من عَمِل عملًا ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**»(١).

» رجاء القبول والخوف من الرد:

إن الربـاني يبـذل جهـده ويسـتفرغ وسعه، ثم يرجو القبول ويخاف الرد.

إن الربـاني يبـذل جهـده ويسـتفرغ وسعه، ثم يرجو القبول ويخاف الرد، قـال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وقد قال ﷺ حين سألته عائشة رضي الله عنها عن هذه الآية فقالت: «أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: **لا يا بنت الصديق! ولكـنهم الذيـن يصومون ويصلّون ويتصدّقون، وهم يخافون أن لا يُقبَل منهم أولئـك الذيـن يسارعون في الخيرات**»(٢).

وفي الحديث: « **لو أن رجلًا يُجرُّ على وجهه من يومِ وُلِد إلى يوم يموتُ هَرَمًا في مرضاةِ الله عز وجل لحقَّرهُ يوم القيامة**»(٣).

(١) أخرجه: مسلم، كتاب الأقضية، باب «نقض الأحكام الباطلة ورد محـدثات الأمـور»، (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه: الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة المؤمنون»، (٣١٧٥).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند»(٤/ ١٨٥)، والطبراني في «الكبير»(١٧/ ١٢٢)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ٤٧٩).

قال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه»[1].

ذلك أن قبول العبادة بتحصيل التقوى غاية ليس من ورائها غاية، فأداء العبادة إنما هو لتحصيل التقوى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ ﴾ [الحج: ٣٧].

والتقوى سبب قبول العبادة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

الربانية لا رهبانية فيها؛ ذلك أن الرباني لا يكون كذلك حتى يُعنى بإصلاح ذاته، وإصلاح غيره، بالتعلم تارة وبالتعليم أخرى.

والربانية لا رهبانية فيها؛ ذلك أن الرباني لا يكون كذلك حتى يُعنى بإصلاح ذاته، وإصلاح غيره، بالتعلم تارة وبالتعليم أخرى، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وعليه فإن الربانيين هم الذين يتصدون لنفع الناس وهدايتهم، وأمرهم ونهيهم، ومتى تخلوا عن هذا الواجب استحقوا المذمة والتوبيخ، قال تعالى: ﴿ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ [المائدة: ٦٣].

(١) أخرجه: البخاري، كتاب الإيمان، باب «خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر».

ثالثًا: موافقة القول للعمل، والظاهر للباطن:

من أظهر معالم الربانية اتفاق الظاهر والباطن ومطابقة القول للعمل، إذ الربانية استقامة على أمر الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢].

فالربانية انسجام تام بين الفعل والكلام، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

» فالرباني من يعظ بعمله قبل قوله:

والرباني يحذر دائمًا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢].

وقديمًا قيل: من لم ينفعك لحظه لم ينفعك وعظه!

«علماء السوء جلسوا على باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم».
ابن القيم

«علماء السوء جلسوا على باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: هلمّوا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًّا، كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أَدِلَّاء، وفي الحقيقة قطَّاع طرق»[1].

فالداعية لا يُتَّبع على دعوته حتى يكون أول العاملين المهتدين، قال

(١) «الفوائد»، لابن القيم (ص٦١).

تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [يس : ٢١].

وَغَيْرِ تقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى طَبِيْبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهْوَ عَلِيْـلُ

» والرباني القدوة يتحرز مما لا يتحرز منه غيره:

قال الأوزاعي: «كنا نضحك ونمزح فإذا صرنا يُقتدى بنا فلا أرى ذلك يسعنا»(١).

قال ابن دقيق العيد: «وهذا متأكد في حق العلماء و من يقتدى بهم، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلًا يوجب سوء الظن بهم، وإن كان لهم فيه مَخلَص؛ لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم» (٢).

ذلك أن مقام الاقتداء عظيم، ورتبته جليلة لم يمنحها النبي ﷺ إلا لاثنين من أمته بعده، فقال: «**اقتدوا باللذَّيَنِ مِن بَعْدي: أبي بكرٍ وعمرَ**» (٣) أما اتباع السنة فهي للخلفاء الأربعة جميعًا.

» والرباني القدوة ينتفع به موافقه ومخالفه على السواء:

قال الذهبي عن ابن تيمية -وكان موافقًا له-: «شيخ الإسلام، مفتي الفرق، قدوة الأمة» (٤).

وقال ابن الزملكاني في حقه -وكان مخالفًا له-: «شيخ الإسلام، ومفتي الأنام، سيد العلماء، قدوة الأئمة الفضلاء» (٥).

---

(١) «تلبيس إبليس»، لابن الجوزي (ص١٥٥).
(٢) «فتح الباري»، لابن حجر (٤/ ٢٨٠).
(٣) أخرجه: الترمذي، كتاب المناقب، باب «في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما»، (٣٦٦٢) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.
(٤) «الانتصار»، لابن عبد الهادي (ص٧٢).
(٥) السابق(ص٧١).

وقال في موضع آخر: «الزاهد العابد القدوة، إمام الأئمة، قدوة الأمة»[1] وما ذاك إلا لأن مقاله ترجم عنه حاله، وحاله ظاهرة في مقاله.

والرباني القدوة قوله أحسن الأقوال، وعمله أحسن الأعمال، وحاله أحسن الأحوال.

والرباني القدوة قوله أحسن الأقوال، وعمله أحسن الأعمال، وحاله أحسن الأحوال، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣].

وأولى الناس بالربانية رسل الله، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾ [الأنعام : ٩٠].

رابعًا: السمت الصالح والخلق الحسن:

إن من معالم الربانية رعاية الأخلاق النبوية، وتمثُّل الآداب المصطفوية، فهي ثمرة مباركة لشجرة طيبة، ألا وهي شجرة الإيمان الباسقة، وهي فرع مباشر لأصل ظاهر، ألا وهو العبودية لرب البرية، وهي مظهر كريم لجوهر عظيم، ألا وهو المطابقة بين القول والعمل، والموافقة بين الظاهر والباطن.

وقد قال تعالى لأحسن الدعاة خَلقًا وخُلقًا ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤].

وربانية الأخلاق والسمت والهدي من الدين بمكان لا ينكر

» وربانية الأخلاق والسمت والهدي من الدين بمكان لا ينكر، ففي الحديث: «إن

(١) السابق(ص٧١).

الهديَ الصالحَ والسَّمْتَ الصالح والاقتصاد جزءٌ من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة»[1].

وفي حديث آخر: «**إنَّ مِن أَكمَلِ المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا**» [2].

والأخلاق الربانية أعم من أن تكون أخلاقًا فردية: كالحياء والتواضع، والسكينة والوقار، والطلاقة والبشر.

أو أخلاقًا جماعية: كالعدل والإحسان، والبذل والتضحية، واللين والرفق، والوفاء بالعهد، وصدق الوعد.

أو أخلاقًا اجتماعية: كصلة الرحم، وبر الوالدين، والصبر بين الزوجين، والتعاشر بالمعروف.

أو أخلاقًا سياسية: كالنصيحة للأئمة، واستشارة أهل الحل والعقد، والعدل بين الرعية، ورعاية حقوق الإنسان.

أو أخلاقًا اقتصادية: كالصدق في التعامل، واجتناب الإسراف والتقتير، وأخذ المال من حلِّه وإنفاقه في مَحلِّه.

والأخلاق الربانية أعم من أن تكون بين المسلم والمسلم فهي تعمُّ الخلق جميعًا: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٩٠].

(١) أخرجه: أبو داود، كتاب الأدب، باب «في الوقار»، (٤٧٧٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه: الترمذي، كتاب الإيمان، باب «ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه»، (٢٦١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

» والأخلاق الربانية أوسع دائرة من البشر فهي تشمل الكائنات جميعًا، وفي الحديث: «**إن الله كَتَبَ الإحسان على كل شيء**»(١)، وقال ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**»(٢).

» وعليه فإن الدعوة الربانية هي التي تقيم الحق وتحسن إلى الخَلق، وهي التي تدعو إلى الجد ولا تمنع المباح من اللهو، وهي التي تحرص على الرحمة والرفق، وتنهى عن القسوة والعنف.

الدعوة الربانية هي التي تقيم الحق وتحسن إلى الخَلق، وهي التي تدعو إلى الجد ولا تمنع المباح من اللهو، وهي التي تحرص على الرحمة والرفق.

خامسًا: التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الحبور:

» **إن الربانية هي زهد في الدنيا ومتاعها**، ورغبة في الآخرة ونعيمها، قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر : ٣٩]، عن عمر ﷺ قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ يظلُّ اليومَ يلتوي ما يجد من الدَّقل ما يملأ به بطنه»(٣).

» **إن الربانية هي ترك الاغترار بدار الغرور**، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر : ٥].

» **إن الربانية إيثار الآخرة الباقية على الدنيا الفانية**، قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى : ١٦-١٧]، وفي

(١) أخرجه: مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب «الأمر بإحسان الذبح والقتل..»، (١٩٥٥) من حديث شداد بن أوس ﷺ.
(٢) أخرجه: مسلم، كتاب الإيمان، باب «تحريم الكبر وبيانه»، (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.
(٣) أخرجه: مسلم، كتاب الزهد والرقائق، (٢٩٧٨).

الحديث «اللَّهُمَّ لا عيش إلا عيش الآخرة» [1].

» **إن الربانية تزودٌ من خير زاد،** قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة : ١٩٧]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف : ٤٦]، وفي الحديث: «**مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ ثم راح وتركها**» [2].

» **إن الربانية قناعة وكفاف،** قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس : ٥٨]، وفي الحديث: « **قد أفلح من أسلم ورُزق كفافًا وقنَّعه الله بما آتاه**»[3].

» **إن الربانية هي جعل الهموم همًّا واحدًا،** وفي الحديث: «**من جعل الهموم همًّا واحدًا همَّ المعاد، كفاه الله هَمَّ دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك**» [4].

» وفي الحديث: «**من كانت الآخرة همَّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شَمْلَه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا أكبرَ همَّه جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شَمْلَه ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له**»[5].

---

(١) أخرجه: البخاري، كتاب الرقاق، باب «لا عيش إلاعيش الآخرة»، (٦٤١٣) ، ومسلم : كتاب الجهاد والسير، باب «غزوة الأحزاب وهي الخندق»، (١٨٠٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: الترمذي، كتاب الزهد، باب «ما جاء في أخذ المال بحقه»، (٢٣٧٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: مسلم، كتاب الزكاة، باب «في الكفاف والقناعة»، (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه: ابن ماجه، كتاب الزهد، باب «الهم بالدنيا»، (٤١٠٦).

(٥) أخرجه: الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، (٢٤٦٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

وخاتمة القول: إن الربانية تجمع في ثناياهـا خصائص الدعوة الراشدة التي ترعى الفطريـة، وتحقق الوسطية، وتقيم التوازن، وتنشر الرحمـة، وتُعْنَى بالشمول، وتطمح نحو الكمال، وترتاد أفق العالمية، ولا تتخلَّى عن الواقعية.

إن الربانية تجمع في ثناياها خصائص الدعوة الراشدة

مذكرات وتعليقات

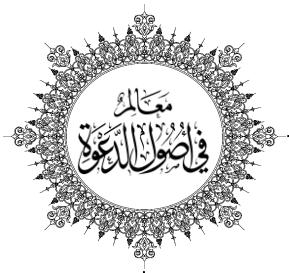

الأصل الثاني

2

التوحيد الخالص
والاعتقاد الصحيح

التوحيد الخالص والاعتقاد الصحيح

إن توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة هو غاية خلق العالمين، وهو أصل دعوة الرسل أجمعين، وهو أول ما يخاطب به الناس من أمور الدِّين، وهو سبب العصمة في الدنيا والنجاة في الآخرة، وهو الشرط لصحة وقبول سائر الطاعات.

» **أما إنه غاية خلق العالمين؛ فلقوله تعالى:** ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، **وأما إنه دعوة الرسل أجمعين، فلقوله تعالى:** ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، **وقال** ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، **فالتوحيد حق الله على العبيد.**

» وأما إنه أول ما يخاطب به الناس من أمور الدين؛ فلقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٦٤]، ولقوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه حين أرسله إلى اليمن: «**إنك تقدُم على قوم أهل كتاب، فليكُن أوَّلَ ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في يومهم وليلتهم**» الحديث[1].

» وأما إنه سبب العصمة في الدنيا؛ فلأن الإقرار بالتوحيد يعصم الدم والمال، ويثبت عقد الإسلام، كما قال ﷺ: «**أُمِرتُ أن أُقاتلَ الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمَن قال: لا إله إلا الله عَصَم منِّي مالَهُ ونفسَهُ، إلا بحقِّه، وحسابُه على الله**»[2].

» وأما إنه سبب النجاة في الآخرة؛ فلقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، ولقوله ﷺ حين سئل: ما الموجِبَتَانِ؟ فقال: «**مَن ماتَ لا يشركُ بالله شيئًا دخلَ الجنّةَ، ومن مات يُشركُ بالله شيئًا دخلَ النارَ**»[3].

» وأما إنه الشرط لصحة وقبول سائر العبادات؛ فلقوله تعالى -في حق المؤمنين العاملين-: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ

(١) أخرجه: البخاري، كتاب الزكاة، باب «لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة»، (١٤٥٨)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الإيمان، باب «الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام»، (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه: البخاري، كتاب الزكاة، باب «وجوب الزكاة»، (١٤٠٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب «الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»، (٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: مسلم، كتاب الإيمان، باب «من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة»، (٩٣) من حديث جابر عن عبد الله رضي الله عنهما.

مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء:١٢٤]، ولقوله جل وعلا -عن أعمال الكافرين-: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]. فالشرك محبط لجميع الطاعات، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥]، فكما لا تقبل صلاة بغير وضوء، لا تقبل عبادة بغير توحيد.

» فالتوحيد أول ما يتعلمه الداعية، قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩]، وأوجب ما يدعو الناس إليه، قال تعالى - على لسان أنبيائه-: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف:٥٩]، فهو عمدة الأصول التي ينطلق منها الداعية في دعوته إلى الله، وخلافته لرسول الله ﷺ خاصة، ولرسل الله عامة، وهو أصل كل صلاح في هذه الحياة، كما أن الشرك ومعصية الرسول أصل كل فساد، يقول ابن تيمية رحمه الله: «فأصل الصلاح: التوحيد والإيمان، وأصل الفساد: الشرك والكفر»(١).

فالتوحيد أول ما يتعلمه الداعية، وأوجب ما يدعو الناس إليه.

» **ومما يؤكد أهمية الدعوة إلى التوحيد: أن الخلل الواقع في جانبه أعظم خطرًا**، وكذا فإن فساد العقيدة سبب مباشر في حدوث الاختلاف والتفرق والتنازع بين طوائف الأمة، فتحقيق كلمة التوحيد هو السبيل لوحدة الكلمة.

(١) «مجموع الفتاوي»، لابن تيمية (١٨/ ١٦٣).

» فالداعية الحق يجعل الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والتوحيد الخالص أولًا ودائمًا، وقبل كل شيء، ومع كل شيء، يدل على ذلك:

فالداعية الحق يجعل الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والتوحيد الخالص أولاً ودائمًا، وقبل كل شيء، ومع كل شيء.

- أن الإيمان عند الإطلاق في الكتاب والسنة لا يقتصر على اعتقاد القلب، بل يشمل إقرار اللسان وعمل الأركان كما هو اتفاق أهل السنة والجماعة.
- ارتباط الأحكام والأمر والنهي بالاعتقاد بذكر الوعد والوعيد، وختم آيات الأحكام بذكر صفات الله ﷻ المناسبة للمقام، وافتتاح بعضها بنداء الإيمان؛ لشدة ارتباط هذه الأحكام باعتقاد القلب.
- أن جميع المخالفات - سواء أكانت تركًا أم فعلًا - إما قادحة في أصل الدين وناقضة للإيمان؛ كالشرك الأكبر والبدع المكفرة، وإما قادحة في كماله الواجب - وإن لم يكفر مرتكبها -؛ كالشرك الأصغر وسائر المعاصي.

وعلى هذا فإن الدعوة إلى الاستقامة على جميع تكاليف الإسلام هي في حقيقتها دعوة لترسيخ التوحيد وتحقيق العقيدة.

الدعوة إلى الاستقامة على جميع تكاليف الإسلام هي في حقيقتها دعوة لترسيخ التوحيد وتحقيق العقيدة.

«وحريٌّ بالدعاة أن يوجهوا جهودهم إلى تبصير الناس كيف يوحدون ربهم، وكيف يخلصون دينهم لله، وعليهم أن يجعلوا ذلك هو الأصل والأساس كما كان الرسل من قبل»[1].

---

(١) «التوحيد محور الحياة»، لفضيلة الشيخ الدكتور عمر الأشقر (ص٣٢).

وانطلاق الدعوة من التوحيد الخالص والعقيدة الصحيحة التي حملها أهل السنة عن سلف الأمة يشمل ثلاثة جوانب أساسية، بيانها كالتالي:

أولاً: الأثرية:

ومفهوم الأثرية يعني أن العقيدة التي تتبناها الدعوة الراشدة هي التي تقوم في أصلها وأساسها على المنقول والمأثور من كتاب الله تعالى وصحيح السنة والأثر، وهي عقيدة الصحابة والتابعين، وسلف الأمة الصالحين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وهي الوسطية المحمودة، والسلفية المقصودة.

عقيدة الدعوة هي عقيدة الصحابة والتابعين، وسلف الأمة الصالحين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وهي الوسطية المحمودة، والسلفية المقصودة.

» ومن أثرية العقيدة: تلقي النصوص بالتسليم والتعظيم.

فالتسليم والتعظيم إنما هما لقول الله تعالى أولًا، ولبيان الرسول ﷺ ثانيًا، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان:٢٢]، وذلك من غير تعرض لنصوص الوحيين بتحريف الغالين، أو تأويل الجاهلين، أو انتحال المبطلين.

ومن التسليم والتعظيم: مجانبة الجدال والمراء في نصوص العقيدة وقواعدها الكلية، إذ هي عقيدة سهلة واضحة، ميسرة بيسر هذا الدين، «**إن هذا الدين يسر**»(١).

والتسليم والتعظيم يعين على تجاوز الخصومة المفتعلة - ظلمًا أو جهلًا -

(١) أخرجه: البخاري، كتاب الإيمان، باب «الدين يسر»، (٣٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

بين صحيح النقل وصريح العقل، فإن بدا ما ظاهره التعارض بين العقل والنقل فمرده إلى الوهم في قطعية أحدهما ثبوتًا أو دلالة، فإن العقل الصريح لا يناقض النقل الصحيح ولا بُد «فمن الله ﷻ العلم، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»[1].

وكما قال بعض السلف: «قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم»[2].

» **ومن أثرية العقيدة: توحيد مصدر التلقي.**

من أثرية العقيدة: توحيد مصدر التلقي.
وذلك بتجريده عن كل شوب كلامي مردود، أو فلسفي مذموم، أو مسلكي مبتدع

 وذلك بتجريده عن كل شوب كلامي مردود، أو فلسفي مذموم، أو مسلكي مبتدع، بالاعتماد على الكتاب والسنة في تلقي العقيدة والدين كله بفهم الصحابة المرضيين، والثقات الأثبات من علماء خير القرون رضي الله عنهم أجمعين.

 والتعويل على إجماعهم واتفاقهم في هذا الباب، فهم أعمق علمًا بمعانيها، وأدق فهمًا لمراميها، وأقل تكلفًا في العمل بما فيها، وأبعد عن الخلاف والافتراق في أصولها وقواعدها، فما أجمعوا عليه فهو الحق ولا بد، وما اختلفوا فيه فإن الحق لا يجاوز أقوالهم؛ فمن آمن بمثل ما آمنوا به فقد اهتدى، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ [البقرة:١٣٧].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ألا لا يقلدن رجل رجلًا دينه فإن آمن آمن وإن

---

(١) من كلام الزهري. انظر: «السنة»، للخلال (٣/ ٥٧٩).

(٢) «العين والأثر في عقائد أهل الأثر»، لعبد الباقي المواهبي الحنبلي، تحقيق عصام قلعجي، طبعة دار المأمون للنشر، دمشق، ط ١٩٨٧ (ص٦٢).

كفر كفر، فإن كان مقلدًا لا محالة فليقلد الميت ويترك الحي، فإن الحي لا تُؤمن عليه الفتنة»[1].

» **ومن أثرية العقيدة: تحقيق توحيد العبادة.**

 وذلك بإفراده ﷻ بالعبادة، والبراءة من كل ما عُبد من دونه، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقطع ذرائع الشرك كافة، فمن تعلَّق تميمة فلا أتم الله له ، و«**من أتى عرَّافًا فسأله عن شيء فصدَّقه، لم تُقبَل له صلاةٌ أربعين ليلة**»[2]، و«**مَن حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»[3]، كما ثبت النهي عن اتخاذ القبور مساجد، واعتقاد العدوى، والتطيّر، والتصوير وغير ذلك من أسباب الشرك وذرائعه.

 ومن تحقيق توحيد العبادة اعتقاد تفرده تعالى بالأمر والحكم كما تَفرَّد بالإيجاد والخلق، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، فلا حلال إلا ما أحله الله على لسان رسوله ﷺ، ولا دين إلا ما شرعه الله على لسان رسوله ﷺ.

ومن تحقيق توحيد العبادة اعتقاد تفرده تعالى بالأمر والحكم كما تَفرَّد بالإيجاد والخلق.

» **ومن أثرية العقيدة: اعتقاد أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة**

(١) أخرجه: الطبراني في « الكبير» (٩/ ١٥٢)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ١١٦).
(٢) أخرجه: مسلم، كتاب السلام، باب «تحريم الكهانة وإتيان الكهان»، (٢٢٣٠) من طريق صفية بنت أبي عبيد الله عن بعض أزواج النبي ﷺ .
(٣) أخرجه: الترمذي، كتاب النذور والأيمان، باب «كراهة الحلف بغير الله»، (١٥٣٥)، وقال: «حديث حسن»، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وينقص بالمعصية.

 وأن أصل الإيمان تصديق الخبر والانقياد للشرع، وكماله الواجب بفعل الأركان والواجبات، وترك الكبائر والمحرمات، وكماله المستحب بفعل المندوبات وترك المكروهات والورع عن الشبهات.

 وقصر الإيمان على التصديق وإخراج الأعمال من الإيمان بالكلية تفريط مذموم، وإدخال جميع الأعمال في أصل الإيمان إفراط مذموم، والحق وسط بين الغالي فيه والجافي عنه.

» ومن أثرية العقيدة: الأثرية في مصطلحاتها.

وذلك باعتماد ألفاظ ومصطلحات الكتاب والسنة عند تقرير مسائل الاعتقاد وأصول الدين، والتعبير بها عن المعاني الشرعية، وفق لغة القرآن وبيان الرسول ﷺ؛ فإن «الأحسن في هذا الباب مراعاة ألفاظ النصوص، فيثبت ما أثبته الله ورسوله باللفظ الذي أثبته، وينفي ما نفاه الله ورسوله كما نفاه»[1]، مجانبة لكلام أهل الأهواء، ومفارقة لمصطلحات المتفلسفة بالآراء، وإيثارًا لمرجعية مقالات وكتب أهل السنة، وتعويلًا على اتفاقهم وإجماعهم، وتلقيًا عن أشياخهم والأثبات من علمائهم.

» ومن أثرية العقيدة: توقيفية العبادة

 وذلك بالتأكيد على كون العبادة توقيفية، والأصل فيها الحظر إلا ما ورد به الدليل، وسد ذرائع الابتداع والإحداث في الدين، ورد جميع ما

العبادة توقيفية، والأصل فيها الحظر إلا ما ورد به الدليل.

(١) «التفسير الكبير»، لابن تيمية (٦/ ٤٠٨).

خالـف سنة سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ، فمستند المشروعية - أبدًا - هو موافقة الشريعة المطهرة، بفهم وتطبيق الصحابة البررة، وأهل الحديث المهرة، و«**مَن أحدثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(١).

وجماع الدين أصلان: «أن لا نعبد إلا الله، ولا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بالبدع»

ابن تيمية

وجماع الدين أصلان: «أن لا نعبد إلا الله، ولا نعبده إلا بما شرع، لا نعبده بالبدع»(٢)، «**وكل بدعة ضلالة**»(٣).

والأسوة الحسنة لهذه الأمة هو رسول الله ﷺ، فإذا صحت سنته بلا معارض، فلا يحل لأحد ردها لقول أحد من الخلق، قال سبحانه: ﴿**فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور:٦٣].

» **ومن أثرية العقيدة: تمام العناية بعلومها العينية.**

وذلك بالتفريق لدى دراستها بين معرفة ضوابطها وحدودها الخارجية التي تحمي جناب التوحيد من ابتداع المبتدعين، وترد انحرافات الضالين -وذلك من جنس رد البدع الكلامية والفلسفية، وخوض المعارك والمناظرات مع أهل المقالات الردية؛ فإن العلم بها من فروض الكفايات، وهو على المتخصصين- وبين علوم العقيدة ومعارفها وقضاياها العينية المتعلقة بمعرفة الله تعالى وتعظيمه مع التحقق بقول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح بالإيمان.

(١) أخرجه: البخاري، كتاب الصلح، باب «إذا اصطلحوا على صلح جور»، (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب «نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور»، (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) «العبودية»، لابن تيمية (ص١٧٠-١٧١).

(٣) أخرجه: مسلم، كتاب الجمعة، باب «تخفيف الصلاة والخطبة» (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

إذ الغاية العظمى هي تحقيق توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات عِلمًا وعملًا، وسلوكًا وأخلاقًا، وفكرًا وجهادًا.

» **ومن أثرية العقيدة: محبة السلف الصالح أجمعين.**

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر:١٠].

شعار أهل السنة الترضي عن أصحاب نبينا أجمعين، ومحبة علماء السلف من السابقين، وتابعيهم من أهل العلم والدين.

 وشعار أهل السنة: الترضي عن أصحاب نبينا أجمعين، ومحبة علماء السلف من السابقين، وتابعيهم من أهل العلم والدين، فلا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١٠٠].

 ومن المحبة الواجبة: محبة أهل بيته ﷺ وموالاتهم ومودتهم، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [الشورى:٢٣].

» **ومن أثرية العقيدة: التثبت عند إطلاق الأحكام عامة.**

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات:٦]

فيتعين تمام الاحتياط والتحفظ من تكفير وتبديع المخالف من أهل

القبلة، والعوامِّ من أهل الملَّة، فضلًا عن علماء أهل السنة، وذلك عند التأويل والاشتباه، أو الجهل والغفلة، والتفريق بين القول وقائله، والفعل وفاعله، فمن تلبَّس بكفر أو بدعة أو فسق لم يحكم عليه به في الدنيا حتى تتحقق شروط إجراء الأحكام وتنتفي موانعه، وعصاة الموحدين أمرهم إلى الله في الآخرة، إن شاء عذبهم بعدله، وإن شاء غفر لهم بفضله.

فيتعين تمام الاحتياط والتحفظ من تكفير وتبديع المخالف من أهل القبلة، والعوامِّ من أهل الملَّة، فضلًا عن علماء أهل السنة.

ثانيًا: الشمولية :

» إن شمولية هذه العقيدة تعني: عدم الاقتصار على طلب علمها وممارسة أعمالها والتحقق بمقتضياتها في باب دون باب، وفي أصل دون أصل، إذ لا يصح هجر شيء من عقيدة أهل السنة والجماعة، فالجمع بين علمها ومقتضياتها وآثارها في القلب والجوارح من جهة، وفي سائر جوانب الحياة من جهة أخرى - هو تحقيق العبودية في أكمل صورها وأجلى معانيها.

» **ومن شمولية العقيدة: الجمع بين البيان والرد.**

وهذا يعني: الجمع بين بيان عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة، تأصيلًا وتقريرًا بأدلتها النقلية والعقلية من جهة، ورد الشبهات والتنبيه على البدع والضلالات من جهة أخرى.

» **ومن شمولية العقيدة: تحقيق إياك نعبد وإياك نستعين.**

ويكون تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥] بالاهتمام بأصول

التعبد القلبي، وترسيخ حقائق الإيمان، عبادة بكامل الحب والذل، واستعانة بتحقيق التوكل، وخوفًا ورجاءً تحصل بهما النجاة، وبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، وإخلاصًا في عبودية الباطن، وخشية موجبة للتقوى، ورضى موصلًا إلى التسليم، وتعلقًا يفضي إلى الأنس.

وبالجملة فإن عبادات القلب هي جوهر كل خير، وعنها يصدر كل بر.

وبالجملة فإن عبادات القلب هي جوهر كل خير، وعنها يصدر كل بر.

» ومن شمولية العقيدة: تلازم نوعي التوحيد.

الجمع بين توحيد الربوبية والألوهية في العناية والعرض والتعليم، وبيان تضمن الألوهية للربوبية، واستلزام الربوبية للألوهية، وإحياء عبادة التفكر والتدبر وهي التي تحقق توحيد الربوبية والأسماء والصفات، وتهدي إلى توحيد الألوهية وإفراده تعالى بالعبودية.

» ومن شمولية العقيدة: دراسة توحيد الأسماء والصفات بجانبيه العلمي والعملي.

فتخليص الأخلاق والسلوك من الآفات والموبقات التي تنشئها الغفلة عن مدلولات الأسماء والصفات - وهو الجانب العملي - لا يقل في أهميته عن تخليص العقل والفكر من الشبهات والأهواء والبدع في هذا الباب من التوحيد، وهو الجانب العلمي.

» ومن شمولية العقيدة: السعي في تطبيق الشريعة.

وبيان وثيق الارتباط بين تحكيم الشريعة والرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا؛ فلا يثبت عقد الإسلام، ولا تتحقق حقيقة

الإيمان إلا بالتصديق مع الانقياد لحكم الله ورسوله ﷺ، فمن لم يتحقق في قلبه هذان الأمران، لم يثبت له حكم الإسلام.

لا تتحقق حقيقة الإيمان إلا بالتصديق مع الانقياد لحكم الله ورسوله ﷺ

وإنَّ نقل مصدرية الأحكام ومرجعيتها من الوحي المعصوم إلى الهوى المشئوم اعتداء على مقام الألوهية، ونقض لعقيدة الوحدانية، وردة إلى الجاهلية، قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة:٥٠].

» **ومن شمولية العقيدة: تحقيق عقيدة الولاء والبراء.**

وذلك بالاهتمام بتأصيل عقيدة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين كل بحسبه، وتخليص الولاء بين الأتباع والمتبوعين من الموافقة على المخالفة، أو ترك التذكير والمناصحة، أو اعتقاد التقديس والعصمة، أو ترك التأييد والنصرة.

والاهتمام بتحقيق البراء من كل ما خالف صحيح الاعتقاد من البدع والشركيات، ومجانبة من خالفها من أهل الضلالة والأهواء، كل بحسبه، ومن والى على ملة غير ملة الإسلام فقد هدم الدين، وصار في زمرة الظالمين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١].

من والى على ملة غير ملة الإسلام فقد هدم الدين، وصار في زمرة الظالمين

مع تخليص البراء من سوء الفهم في لزوم الاعتداء، أو ترك الوفاء، أو مجانبة الإنصاف.

» **ومن شمولية العقيدة: التوازن في العرض والبيان.**

ويعني: التوازن والشمول بين عرض قضايا الإيمان وحقائقه من جهة، ومبطلاته ونواقضه من جهة أخرى، والاهتمام بسد الطرق الموصلة إلى الشرك كافة، وحماية جناب التوحيد عامة.

» **ومن شمولية العقيدة: سعة الفهم والمواجهة للانحرافات كافة.**

ويقصد به سعة الفهم لأنواع وصور الانحراف عن صحيح الاعتقاد، فلا فرق بين انحراف وشرك حضاري وآخر بدائي، والعناية بمواجهة تلك الانحرافات المعاصرة، سواء أكانت عند الأضرحة والقبور أو لدى أرباب الحكم والقصور، ومواجهة تيارات الإلحاد والتغريب والعلمنة في الأدب والفكر والثقافة، وشتى العلوم الإنسانية.

ثالثا: الإيجابية:

العقيدة الإيجابية الحية هي التي لا يقف أثرها عند مجرد التصديق النظري؛ بل يتعدى ذلك لينشئ واقعًا عمليًّا.

إن هذه العقيدة لا يكمل الانتساب إليها حقًّا ولا الانتماء لها صدقًا إلا بالعمل بها والدعوة إليها، بعد اعتناقها وتعلمها والتفقه فيها، فالعقيدة تمارَس - عمليًّا - بالبلاغ والسعي بها، والبلاغ والسعي تضبطهما العقيدة - هدفًا ووسيلة وغاية -، والعقيدة الإيجابية الحية هي التي لا يقف أثرها عند مجرد التصديق النظري؛ بل يتعدى ذلك لينشئ واقعًا عمليًّا.

» **ومن إيجابية العقيدة: ارتباطها بآثارها العملية.**

وهي تظهر من خلال العناية بشعائر التعبد، واستقامة الأخلاق، وانضباط السلوك، وازدياد الأدب، ونبل المشاعر، فلا يقتصر عند الدعوة إليها على الجانب العلمي النظري دون الجانب العملي السلوكي، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

» **ومن إيجابية العقيدة: وضوح آثارها على مسلَك الداعية.**

بحيث يظهر أثرها على فكر الداعية، فتُرى في أهدافه، وتُسمع في أقواله، وتُقرأ في كتاباته، مع تعظيم علمائها وتقدير دعاتها كافة، والتعاون معهم على اختلاف مسالكهم العملية، لإقرارها ونصرتها، وتكثير سواد أهلها، والاجتماع والوحدة على أساسها.

» **ومن إيجابية العقيدة: تسديد منهج النقد والتقويم.**

ويتمثل في الصدور عنها في نقد وتقويم الأشخاص والأحداث والمواقف، واتخاذها دون غيرها من الأسماء والشعارات أساسًا للاجتماع والمتابعة، والافتراق والمفاصلة، والحب والموالاة، والبغض والمعاداة.

» **ومن إيجابية العقيدة: انضباط منهج الدعوة بها.**

وذلك بالتقيد بها في منهج الدعوة كله، ورفض الوسائل والأساليب المنافية لها، إذ الغاية - وإن علت - لا تسوّغ الوسيلة إذا نزلت، وأما التقيد بها في جانب دون جانب فذلك قادح في صدق الانتماء لها.

» **ومن إيجابية العقيدة: اتقاد جذوة التضحية في سبيلها.**

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣]، فهذه الآية هي لسان حال كل داعية صادق، يبذل لعقيدته في كل وقت، وعلى كل حال، فلأجلها يسالم ولأجلها يقاوم، ومن أجلها يسعى ويتحرك؛ ينفق ماله، ويبذل جهده، ويستفرغ وسعه، ويزهق روحه؛ لتنتصر وتسود، ويمكَّن لها ولأهلها في الأرض.

وبتحقق الدعوة بهذه الجوانب الثلاثة من «أثرية» و«شمولية» و«إيجابية» يكون التوحيدُ الخالص والعقيدة الصحيحة الأساسَ الأول والمنطلق الرئيس للدعوة والدعاة إلى الله تعالى.

وبتحقق الدعوة بهذه الجوانب الثلاثة من «أثرية» و«شمولية» و«إيجابية» يكون التوحيد الخالص والعقيدة الصحيحة الأساس الأول والمنطلق الرئيس للدعوة والدعاة إلى الله تعالى.

مذكرات وتعليقات

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

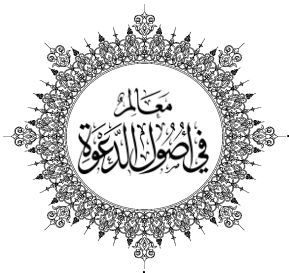

الأصل الثالث

3

الإخـــــــلاص

الإخـــــلاص

الإخلاص هو حقيقة الدين، ومفتاح دعوة النبيين، قال تعالى ذكره: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥]، وقال ﷻ: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزمر:٣]، والإخلاص الذي هو شرط قبول العمل يعني: تصفية العمل من كل شوب، وإفراد الله تعالى بالقصد في الطاعات والحركات والسكنات.

وما كان الإخلاص في صغير إلا عظَّمه، ولا نُزع من كبير إلا صغَّره. به يبلغ المرء ما لا يبلغه بعمله، وتتفاوت منازل العاملين بحسب قدره؛ إذ مدار القبول عند الله على السرائر لا على مجرد المظاهر.

» وأهل الإخلاص رفع الله قدرهم بما كتموا من الصالحات، وبما زهدوا في الجاه والرياسات، وبما أزروا على أنفسهم وأعمالهم في جنب الله تعالى، وبما حرصوا على هداية الخلق إلى الحق، والتنـزه عن طلب الأجر، وتقديم مرضاة الله في كل أمر.

» والعمل في الدعوة إلى الإسلام واستئناف قيادته للحياة بعقيدته وشريعته وأخلاقه وحضارته؛ إنما هو عبادة وقربى إلى الله ﷻ من جهة، وجهاد في سبيل الله من جهة أخرى، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر من جهة ثالثة، والداعية المنتسب بدعوته إلى الله يتجرد من هواه ورغبته ورهبته ومصلحته، ويعتقد قول الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤].

فالمخلصون هم جند الدعوات يبتغون بعملهم وجه الله تعالى، ويسمون فوق المنافع الذاتية والمصالح الشخصية

» فالمخلصون هم جند الدعوات يبتغون بعملهم وجه الله تعالى، ويسمون فوق المنافع الذاتية والمصالح الشخصية، هم الذين ينتصرون بالدعوة وتنتصر- بهم الدعوة، ولو كانوا فقراء مغمورين أو ضعفاء مجهولين «**رُبَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبوابِ لو أقسمَ على الله لأبرَّهُ**»(١).

والدعاة إلى الله روح حياتهم الصدق والإخلاص ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]، وهم مع هذا لا يفوتهم نصيبهم من

(١) أخرجه: مسلم، كتاب البر والصلة، باب «فضل الضعفاء والخاملين»، (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الدنيا، « **من كانتْ الآخرةُ همَّهُ جَعلَ الله غِنَاهُ في قلبه، وجَمعَ له شَملَه، وأتتْهُ الدنيا وهي راغِمَةٌ**»[1]، وفي المقابل فإن شر ما تُصاب به دعوة إلى الله هو فقد روح الإخلاص بين أهلها وأبنائها، وظهور الذين يلبسون جلد الضأن من اللين، وقلوبهم قلوب الذئاب، وهم مع هذا لا يأتيهم من الدنيا زيادة على ما قسم لهم، إذ «**ومن كانت الدنيا همَّه جعل الله فقرَهُ بين عينيه، وفرَّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلّا ما قُدِّرَ لَهُ**»[2]، فالناس أحد رجلين عبد لله أو عبد لما سواه! فلا يجتمع الإخلاص التام في القلب ومحبة الدنيا والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار.

ومن مظاهر ودلائل الإخلاص في مسيرة الدعوة:

» انطلاق أعمال الدعوة من شعور غامر بالرحمة والشفقة على عباد الله أجمعين:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف:٦]، وفي الحديث الصحيح: « **إنَّما مَثَلي ومثَلُ أُمَّتي كمَثَل رَجُلٍ استَوْقَد نارًا، فجعلتْ الدَّوابُّ والفَرَاشُ يَقَعنَ فيهِ، فأنا آخِذٌ بحُجَزِكُم وأنتُم تَقَحَّمُون فيهِ**»[3].

» الفرح بكل كفاءة تبرز في ساحة الدعوة إلى الله:

وتمام الكمال في تقديمها وتدعيمها، فهذا لازم سلامة الصدر والنصح

(١) أخرجه: الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع» (٢٤٦٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ.
(٢) الحديث السابق.
(٣) أخرجه: البخاري، كتاب الرقاق، باب «الانتهاء عن المعاصي»، (٦٤٨٣)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب «شفقته ﷺ على أمته»، (٢٢٨٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

للمسلمين، فعن جرير بن عبد الله البجلي ﷺ قال: «بايعتُ رسول الله ﷺ على النُّصح لكلِّ مُسْلِم»[1]، وقال الشافعي : «وددتُ أن الخلق يتعلمون هذا العلم ولا يُنسَبُ إليَّ منه شيء»[2]، و«قيل لحاتم الأصم: أنت رجل ألكن أعجمي وليس يكلمك أحد إلا قطعته! قال: معي ثلاث خصال بهن أظهر على خصمي: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسي أن لا أتجهل عليه، فبلغ ذلك أحمد بن حنبل فقال: سبحان الله، ما أعقله»[3].

» طلب الحق وتعظيم أهله من كانوا وحيث كانوا:

قال الشافعي: «ما كابرني أحد على الحق ودافع إلا سقط من عيني، ولا قبله إلا هبتُهُ واعتقدتُ مودته»[4].

فالدعاة المخلصون يحذرون فتنة الجماهير، كما يحذرون فتنة السلاطين.

فالدعاة المخلصون يحذرون فتنة الجماهير، كما يحذرون فتنة السلاطين، ولا يجوز بحال أن يكون همّ الدعاة تقديم ما يطلبه المستمعون؛ بل مقتضى الإخلاص أن يتكلم الدعاة بما يعتقدون أنه الحق، سواء وافق أهواء الناس أو خالفها، لا يخافون في الله لومة لائم، لا سلطان عندهم إلا سلطان الشرع، ولا صلة يحرصون على تدعيمها إلا صلتهم بالله تعالى ومن والاه، وهذه حقيقة لا إله إلا الله، وهذا هو الإخلاص الذي فيه الخلاص.

---

(١) أخرجه: البخاري، كتاب الإيمان، باب «الدين النصيحة لله ولرسوله..»، (٥٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب «بيان أن الدين النصيحة»، (٥٦) من حديث جرير بن عبد الله البجلي ﷺ.

(٢) «حلية الأولياء»، لأبي نعيم الأصفاني (٩/ ١١٨).

(٣) «حلية الأولياء» (٨/ ٨٢)، و«تاريخ بغداد»، للخطيب البغدادي (٨/ ٢٤٢).

(٤) «سير أعلام النبلاء»، للذهبي (١٠/ ٣٣).

» **الصبر والصفح:**

قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وعن ابن مسعود ﷺ قال: «كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**اللَّهُمَّ اغفِر لقومي فإنَّهم لا يعلمون**»[(١)].

والمخلص من الدعاة يعفو ويصفح ويتأسَّى بالإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين عفا عن الخليفة المعتصم، فقال: «وما ينفعك أن يعذب الله أخاك المسلم في سبيلك»[(٢)].

» **العدل والورع والتثبت عند الحكم على الرجال والطوائف:**

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ ﴾ [المائدة:٨]، لاسيما عند الكلام على أهل العلم والدعوة إذ «لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك منتقصيهم معلومة، ومن وقع فيهم بالثلب ابتلاه الله قبل موته بموت القلب»[(٣)].

وليحذر كل داعية من استحلال الأعراض بذريعة التقويم، وليجتنب إلباس الحسد والهوى والظلم لبوس النصح وبيان الحق، وإنما الأعمال بالنيات.

وليحذرْ كلُّ داعية من استحلال الأعراض بذريعة التقويم، وليجتنب إلباس الحسد والهوى والظلم لبوس النصح وبيان الحق، وإنما الأعمال بالنيات.

(١) أخرجه: البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب «حديث الغار»، (٣٤٧٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب «غزوة أحد»، (١٧٩٢) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٦١).
(٣) «الرد الوافر»، لابن ناصر الدين الدمشقي (ص١٩٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والكلام في الناس يجب أن يكون بعلم وعدل، لا بجهل وظلم كَحَال أهل البدع»[1].

ومعاملة أهل الفضل بالفضل أولى وأحرى، والتماس المعاذير لأهل العلم والدعوة أتقى وأرضى.

ومن مظاهر وآثار ضعف الإخلاص أو غيابه:

» الانفصال بين العلم والعمل:

أو قل - إن شئت -: بين الفكر والسلوك، وتحول عبادة الدعوة إلى مجرد فكرة أو مذهب أو حزب أو ثقافة، فضلًا عن تحولها إلى تجارة!! والتغافل عن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]، والتعرض لوعيد قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٣].

» هيجان الرعونات النفسية والحظوظ الشخصية:

وقيام حجاب الأنانية وحب الذات، والجاه والمنـزلة، واتباع الهوى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦]، وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثٌ مُهلِكات: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوًى مُتَّبعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسهِ من الخُيلاء**»[2]، وكثيرًا ما يصاب الدعاة بمثل هذه الآفات، من حيث شعروا، أو من حيث لا يشعرون.

---

(١) « منهاج السنة النبوية»، لابن تيمية (٤/ ٣٣٧).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥/ ٣٢٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٤٧١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

» **الاختلاف والافتراق:**

وعن ذلك ينشأ الطعن في الثقات، وكثرة التنقل بين الاتجاهات، والتلون تحت الرايات، لا بحثًا عن حق ولكن لشهوة في النفس خفية، مع سريان روح التحاسد والتباغض، والتهاجر والتدابر.

وما كل ذلك إلا نتيجة ما فسد من السرائر بين العبد وربه، وإلا فالصحابة ﷺ كان بينهم من المحبة والألفة - مع وجود الخلاف - ما هو جزاء ما أسرُّوه في أنفسهم من الإخلاص في الطاعة والدعوة، وحب الاجتماع والائتلاف، وبغض الافتراق والاختلاف، وقد قال عثمان ﷺ: «من عمل عملًا كساه الله رداءه، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا»[1].

» **التعصب للأشخاص والمذاهب والطوائف:**

ومن العدل: أن يذكر المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فلا تهوّن أخطاء الموافق، ولا تهوّل أخطاء المخالف، وما أحسن قول من قال: «عادتنا في مسائل الدين كلها دِقِّها وجِلِّها أن نقول بموجبها، ولا نضرب بعضها ببعض، ولا نتعصب لطائفة على طائفة؛ بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق، ونخالفها فيما معها من خلاف الحق، لا نستثني من ذلك طائفة ولا مقالة، ونرجو من الله أن نحيا على ذلك ونموت عليه، ونلقى الله به، ولا قوة إلا بالله»[2].

(١) أخرجه: ابن المبارك في «الزهد» (١٦٨٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٢١١)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (٧٥١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٣٥٩).
(٢) «طريق الهجرتين»، لابن القيم (ص٥٨٢).

» **حب الدنيا والسقوط في فتنتها:**

ولا سيما حب الجاه والرياسة وفتنة المال.

وفي الحديث: «**مَا ذِئبانِ جائِعَانِ أُرسِلَا فِي غَنمٍ بِأفسَدَ لها من حرصِ المرءِ عَلَى المالِ والشَّرَفِ لدِينِهِ**»(١).

وأخيرًا.. فإن الإخلاص روح العقيدة ولُب الأخلاق، وأصل أصول الدعوة إلى الله، فلا نصر لغير المخلصين، ولا تمكين لغير الصادقين، و«كل ما لا يراد به وجه الله ﷻ يضمحل»(٢).

فإن الإخلاص روح العقيدة ولُب الأخلاق، وأصل أصول الدعوة إلى الله، فلا نصر لغير المخلصين، ولا تمكين لغير الصادقين.

مذكرات وتعليقات

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

(١) أخرجه: الترمذي، كتاب الزهد، باب «ما جاء في أخذ المال بحقه» (٢٣٧٦) من حديث كعب بن مالك ﷺ.

(٢) من كلام الربيع بن خثيم. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٥٩).

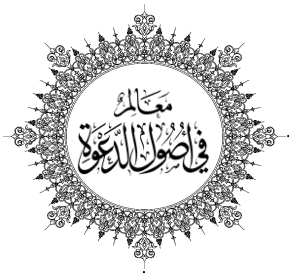

الأصل الرابع

4

الاتبـــــاع

الاتبـــــاع

يأتي توحيد المتبوعﷺ بعد توحيد المعبود ﷻ، فالاتباع شرط القبول الثاني بعد تجريد التوحيد والإخلاص، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، **وكل «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ»** (١).

» وحقيقة الاتباع تصديقهﷺ فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر وحذر، وألا يعارض الأمر والنهي بترخص جافٍ، ولا بتشدد غالٍ، ولا يحملا على علَّة توهن الانقياد.

---

(١) سبق تخريجه.

قال شيخ الإسلام: «إن أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر وطاعته في كل ما أمر، وليست هذه المنـزلة لغيره من الأئمة؛ بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ»(١).

» والاتباع الصادق سبيل إقامة الأمر، وحصول الأجر، والأمن من الفتنة ومغفرة الوزر، قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣].

وهو دليل محبة الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١].

» والنجاة في الدنيا من الابتداع والافتراق وفي الآخرة من النار والعذاب إنما تكون بالاتباع، فعن عبد الله بن عمرو م أن رسول الله ﷺ قال: «**إن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة**»، قالوا: «ومن هي يا رسول الله؟»، قال: «**ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»(٢).

» والاتباع يكون للكتاب المنـزَّل، قال ﷻ: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام:١٥٥]، ويكون للنبي المرسل، قال ﷻ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١]، فيكون بذلك اتباعًا للشرع المطهر،

---

(١) «مجموع الفتاوي» (٣/ ٣٤٦) بتصرف.

(٢) أخرجه: الترمذي، كتاب الإيمان، باب «ما جاء في افتراق هذه الأمة»، (٢٦٤١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٢١٨).

قال ﷻ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ [الجاثية:١٨]، ويكون أخيرًا للرعيل الأول، قال ﷻ: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [التوبة:١٠٠]، قال الإمام أحمد: «إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام»[1].

وشأن الاتباع أن يكون في الاعتقاد: وقد ضل فيه أهل الأهواء كالخوارج والقدرية، كما يكون أيضًا في السلوك: وقد ضل فيه أهل الرهبانية من غلاة الصوفية.

والاتباع في شأن الدعوة إلى الله أمر واجب وحتم لازم.

» والاتباع في شأن الدعوة إلى الله أمر واجب وحتم لازم، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ [الأنعام:١٥٣]، والمخالفة في ذلك مخالفة لسبيل المؤمنين وتعرض للفتنة أو العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣]، ولن يصلح آخِر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

يملك الدعاة في منهج الدعوة وأصولها ومسالكها إلا أن يأخذوا بسنن الهدى.

» فسبيل البدع والشبهات والضلالات من أخطر ما يهدد الحركات والدعوات، فلا يملك الدعاة في منهج الدعوة وأصولها ومسالكها إلا أن يأخذوا بسنن الهدى وأن يتجنبوا سبل الردى؛ إذ البدعة اتهام لمقام النبوة بالخيانة في أداء الأمانة، فهي تستدرك على الشريعة تهمة لها، أو مضادة لأصلها، وهي في ذلك كله قول على الله بغير علم، فكانت شرًّا من المعصية، وغدت ذنبًا لا يُتاب منه، وكيف يتوب من

(١) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٩٦).

يعتقد نفسه - بزعمه - متبعًا؟!

» والناكصون عن الاتباع أهل جهل وتعصب، وغلو وهوى، يجادلون في الحق بعدما تبين، يجتمعون على التهوين من مذهب السلف وانتقاصهم، «مختلفون في الكتاب، مخالفون في الكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب»[1].

» وتتفاوت المعاملة مع المخالف من أهل البدع، تارة ببيان الحق والنصح بلا محاباة، وتارة بالتألُّف والمداراة، وثالثة بالهجر والمجافاة، وذلك بناءً على تفاوت مراتب البدع نفسها، واختلاف حال أهلها، وبحسب المصالح والمفاسد المترتبة في الزمان والمكان؛ إذ كل ذلك من مسائل السياسة الشرعية التي تبنى على تحصيل المصالح وتكميلها، ودفع المفاسد وتقليلها.

والاتباع في الدعوة يشمل معالم علمية وعملية، منها:

» حسن الاقتداء وكمال الاهتداء:

وتمام الموافقة للسلف الصالح في العلم والعمل والدعوة، فقد «أمرنا أن نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع»[2].

ولقد ندبنا إلى الإقدام حيث أقدموا، والإحجام حيث أحجموا، والسكوت حيث سكتوا، «قف حيث وقف القوم، وقل كما قال القوم، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم»[3].

---

(١) «الرد على الجهمية والزنادقة»، للإمام أحمد (ص٦).
(٢) من كلام عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. انظر: «شرح أصول الاعتقاد»، للالكائي (١/ ٨٦).
(٣) من كلام الأوزاعي . انظر:« شرح أصول الاعتقاد» (١/ ١٥٤)، و«حلية الأولياء» (٦/ ١٤٣).

وما وسع السلف من الخلاف فإنه يسع من بعدهم، ومن لم يسعه ما وسعهم فلا وسّع الله عليه.

وما وسع السلف من الخلاف فإنه يسع من بعدهم، ومن لم يسعه ما وسعهم فلا وسّع الله عليه.

» الحذر من اتباع الهوى:

واجتناب التقدّم بين يدي الله ورسوله بقول أو رأي، ولزوم الدليل كتابًا وسنة، وما استند إليهما من الإجماع الصريح والقياس الصحيح، أما تقديم آراء الرجال حالًا فهو ينقض دعوى اتباع الدليل مقالًا، فأقوال الرجال يحتج لها بالأدلة الشرعية، ولا يحتج بها على الأدلة الشرعية، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩].

» فتح باب الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص قاطع أو إجماع:

فلا إثم ولا تضييق على من اجتهد بعد تحصيل آلة الاجتهاد فأخطأ الصواب، والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد في الجملة، ولا يجب على أحد من المسلمين تقليد إمام بعينه، «وإذا نزلت بالمسلم نازلة فإنه يستفتي من اعتقد أنه يُفتيه بشرع الله ورسوله من أي مذهب كان، ولا يجب على أحد من المسلمين تقليد شخص بعينه من العلماء في كل ما يقول، ولا يجب على أحد من المسلمين التزام مذهب شخص معين غير الرسول ﷺ»[1].

» الحذر من الزلات:

لا يعد من مسائل الاجتهاد ما ورد فيه خلاف شاذ، أو جرى مجرى الزلة والهفوة من أقوال العلماء، فلا يتابعون عليها، ولا يقلدون فيها، ولا

(١) «مجموع الفتاوي» (٢٠/ ٢٠٨).

يشنع عليهم بسببها، «والكامل من عُدَّت سقطاته، والسعيد من حسبت هفواته»[1]، فيؤخذ من قولهم ويترك، والمعصوم هو الرسول ﷺ. وتتبع الزلات، والتدين بالهفوات سبيل قاصد للزندقة.

اتباع أهل العلم إنما يصح من حيث كونهم وسائل لمعرفة أمر الله وشرعه فحسب.

واتباع أهل العلم إنما يصح من حيث كونهم وسائل لمعرفة أمر الله وشرعه فحسب. قال أبو حنيفة: «لا يحل لمن يفتي من كتبي أن يفتي حتى يعلم من أين قلت»[2].

» ضبط مسائل الخلاف والاختلاف:

وذلك بالتفريق بين المسائل الاجتهادية التي يقبل فيها الخلاف ولا يطلب فيها الإنكار والتضييق على المخالف، وبين مسائل الاختلاف التي لا يسوغ فيها خلاف، مع التأكيد على أهمية إحياء وممارسة أدب الخلاف في الإسلام، كما أقامه الصحابة والأئمة من بعدهم.

» ترك الإنكار لا ينافي بيان الراجح:

لا تعارض بين ترك الإنكار والتضييق على المخالف في المسائل الاجتهادية العلمية والعملية، وبين التحقيق العلمي لها وبيان ضعف مأخذ المخالف.

لا تعارض بين ترك الإنكار والتضييق على المخالف في المسائل الاجتهادية العلمية والعملية، وبين التحقيق العلمي لها وبيان ضعف مأخذ المخالف.

---

(١) «الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء» (ص١٤٥).

(٢) «يتيمة الدهر»، للثعالبي (١/ ١١١).

وما زال أهل العلم سلفًا وخلفًا يرد بعضهم على بعض، مع حفظ المودة، وبقاء العصمة والألفة، وما من أحد من أهل العلم إلا رادٌّ ومردودٌ عليه.

» جواز التقليد والاجتهاد والاتباع:

 القول الصحيح في التمذهب: جوازه بلا تعصب، وتقديم الراجح بدليله بلا تردد، والعالم المنتهي فرضه الاجتهاد، والعامي فرضه التقليد؛ فمذهبه مذهب من أفتاه.

 وطالب العلم المبتدئ أشبه بالعامي، والمتقدم أشبه بالعالم؛ ففرضه الاتباع لأهل العلم بأدلتهم، ولا يصح الإعراض عن تراث الفقهاء بحجة الاجتهاد ونبذ التقليد، كما لا يسوغ إهمال الدليل الصحيح الذي لا معارض له، وتقديم آراء الفقهاء عليه بلا فحص ولا تمحيص.

» العناية بمنهج الاستدلال وفقه الدليل:

ينبغي الحذر من تحول قضية الأخذ بالدليل عند طائفة إلى نوع من الظاهرية والسطحية التي تجمع إلى الشذوذات والغرائب ضعف التأصيل.

ينبغي الحذر من تحول قضية الأخذ بالدليل عند طائفة إلى نوع من الظاهرية والسطحية التي تجمع إلى الشذوذات والغرائب ضعف التأصيل الفقهي للمسائل، فإنه نوع قول على الله بغير علم، قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف:٣٣].

والأخطر أن يُعَدَّ الشذوذ اجتهادًا، والجرأة على الفتوى تجديدًا، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل:١١٦].

» انضباط الفتوى:

الأصل في الفتوى أن تناط بالمجتهدين، فإن عدموا اعتبر الأمثل فالأمثل.

الأصل في الفتوى: أن تناط بالمجتهدين، فإن عدموا اعتبر الأمثل فالأمثل، مع الاعتناء بسوق الحكم بدليله، وبيان العلة والحكمة ما أمكن إلى ذلك سبيل، «فينبغي للمفتي أن يذكر دليل الحكم ومأخذه ما أمكنه ذلك، ولا يلقيه إلى المستفتي ساذجًا مجردًا عن دليله، فهذا لضيق عطنه، وقلَّة بضاعته في العلم»[(١)].

ويتأكد استصحاب روح الشريعة ومقاصدها من رفع الحرج ومراعاة المصالح عند الفتوى، ولكن ليحذر من التسيّب في الفتوى بدعوى التيسير، أو فهم الواقع، أو الحاجة والضرورة، فإن التيسير لا يسوّغ تجاوز النصوص أو إهمالها، وفهم الواقع لا يعني تطويع الأحكام الشرعية أو استبدالها، والقول بالحاجة والضرورة لا يصح إلا بتحقق شروط واستجماع ضوابط محددة، كما لا ينكر تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والأحوال.

قال الشاطبي: «والمفتي البالغ الذروة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال»[(٢)].

---

(١) «إعلام الموقعين»، لابن القيم (٤/ ١٦١).
(٢) «الموافقات»، للشاطبي (٤/ ٢٥٨).

وإذا كان للمفتي أن يأخذ نفسه بالعزائم وما هو الأورع، إلا أنه حين يفتي غيره يلاحظ الوسط المناسب لجمهور الناس.

والحذر الحذر من التسرّع في الفتيا، وأعلم الناس بالفتاوي أسكتهم، وأجهلهم بها أنطقهم.

وجُنَّة العالِم: (لا أدري)، و«إذا ترك العالم: لا أدري، أصيبت مقاتله»[1].

قال الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت ابن هرمز يقول: ينبغي للعالم أن يورّث جلساءه من بعده (لا أدري) حتى يكون أصلًا في أيديهم، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال: لا أدري»[2].

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يستحيي عالم إذا سئل أن يقول: الله أعلم»[3].

» التمييز بين البدع المحدثة والمصالح المرسلة:

ومن فقه الاتباع: توجيه العناية إلى التفريق بين البدع المحدثة المذمومة، وما استحدث من الأمور التي دليلها المصالح المرسلة؛ فإن الأولى متفق على ردها مطلقًا، والثانية متفق على قبولها في الجملة، إلا إذا عارضتها أدلة الشرع فلا تعتبر.

» الجمع بين الاتباع العلمي والعملي:

والاتباع كما ظهر جليًّا في الجوانب العلمية والمسائل الخبرية فإنه أظهر في المسائل العملية، ووجوبه ألزم في مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله ونحو ذلك من الأصول العملية.

(١) من كلام سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: «حلية الأولياء» (٧/ ٢٧٤).
(٢) «تفسير القرطبي» (١/ ٢٨٥).
(٣) «حلية الأولياء» (١/ ٧٦).

» الطاعة في المعروف:

من أعظم أصول أهل السنة: التزام الطاعة للأئمة ما أقاموا كتاب الله في الأمة، وترك مخالفتهم ونقض بيعتهم، والطاعة المطلقة لا تكون لأحد بعد الله تعالى ورسوله ﷺ.

والشورى ومناصحة الأمة للأئمة شريعة ماضية، وشعيرة مرضية، وهي إنما تكون فيما دخل في دائرة العفو والمباحات، والمسائل العملية الاجتهادية.

وكل ما أحدث من الأقوال والأفعال ومناهج الحكم على خلاف الشريعة فهو رَدٌّ، لا حرمة له، ولا أثر يترتب عليه، إلا ما دعت إليه الضرورة.

وكل ما أحدث من الأقوال والأفعال ومناهج الحكم على خلاف الشريعة فهو رد، لا حرمة له، ولا أثر يترتب عليه، إلا ما دعت إليه الضرورة.

» الاجتماع على الاتباع:

كما أن الاتباع واجب شرعي وضرورة علمية، فكذلك الاجتماع مطلب شرعي وضرورة عملية، فينبغي السعي إلى الاجتماع على المنهج الحق والاتباع، مع الموازنة بين الواجبين في حال السعة والاختيار، وفي حال التدافع والاضطرار، واختيار الأرجح؛ نظرًا للمسلمين، وتحقيقًا لمصلحة إعزاز الدين.

» وسائل الدعوة بين الإطلاق والتقييد:

وتتأكد العناية بالاتباع في وسائل الدعوة، فلا يُقلَّد الكفار في وسائلهم التي هي من شعار دينهم، ولا تعتمد وسيلة أهدرتها نصوص الوحي فمنعتها أو نفَّرت عنها، وكل وسيلة بعدُ فهي مباحة متى ما حققت المقصود الشرعي، إذ

ليست وسائل الدعوة توقيفية بإطلاق، ولا مطلقة من كل قيد، وكما أن الغايات يجب أن تكون شرعية فالوسائل كذلك، و«الوسيلة إلى أفضل المقاصد أفضل الوسائل، وإلى أقبح المقاصد أقبح الوسائل»[1].

ليست وسائل الدعوة توقيفية بإطلاق، ولا مطلقة من كل قيد، وكما أن الغايات يجب أن تكون شرعية فالوسائل كذلك.

فالحاصل أنه: «ليس للوسائل حد شرعي، فكل ما أدَّى إلى المقصود فهو مقصود، ما لم يكن منهيًّا عنه بعينه، فإن كان منهيًّا عنه بعينه فلا نقرُّ به، ... وليس من اللازم أن ينص الشرع على كل وسيلة بعينها فيقول: هذه جائزة، وهذه غير جائزة؛ لأن الوسائل لا حصر لها ولا حد لها، فكل ما كان وسيلة لخير فهو خير»[2].

مذكرات وتعليقات

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

(١) «الفروق»، للقرافي (٢/ ٣٢).

(٢) «لقاءات الباب المفتوح مع فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين» (١/ ٤٤٩).

مذكرات وتعليقات

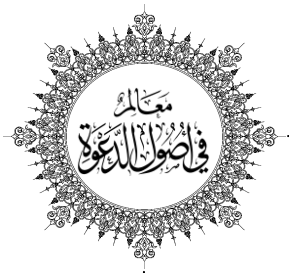

الأصل الخامس

5

العلم

العلم

العلم بالله تعالى وبأمره أعظم من أن يحاط بفضله، أو يدرك جليل قدره؛ فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، هو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، وهو معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل أهل الإسلام، وهو العدة في البلاء، والزينة في الرخاء، والفضل بين الأخلاء، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في خير دار، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩]، **قال الإمام الزهري: «ما عُبد الله بشيء أفضل من العلم»**[1].

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٣٦٥).

وتكمن أهمية العلم ويظهر مسيس حاجة الدعوة إليه في النقاط الآتية:

» العلم نبراس الدعوة:

«إذا كانت الدعوة أشرفَ مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، ولا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي»[1].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد:١٩] يقرر أن العلم قبل القول والعمل، فالعلم أمام العمل وإمامه؛ ذلك أن العلم شجرة والدعوة ثمرة؛ فالدعوة بلا علم سعي بلا هدى، فيتعين على كل داعية أن يتعلم من دينه ما تصح به دعوته وما يؤهله لإظهار الحق ودحض شبهات الباطل، كل بحسب حاله. وهذا من البصيرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالعلم يجب أن يكون سمت الدعوة الراشدة، وإذا أراد الله بدعوة خيرًا فقَّه رجالاتها في الدين.

» العلم الشرعي قبل الرأي الشخصي:

الدعوة إلى الله تعالى في هذا الزمان تعالج أمورًا عظيمة، وقضايا كبيرة، ونوازل في مختلف الجوانب التي يجب أن تنالها يد الإصلاح، وما لم يكن من أهل الدعوة أولو علم واجتهاد وبصيرة، فإن الدعوة

ما لم يكن من أهل الدعوة أولو علم واجتهاد وبصيرة، فإن الدعوة ستسير ولكن إلى غير هدف، وستقاتل ولكن في غير ميدان.

(١) «مفتاح دار السعادة»، لابن القيم (١/ ١٥٤).

ستسير ولكن إلى غير هدف، وستقاتل ولكن في غير ميدان، فتضطرب في آرائها، وتخطئ في مواقفها، فقد تعادي من ينبغي أن تصالحه، وقد تهادن من يجب أن تنابذه، ولن يغني عنها حماس أتباعها شيئًا، كما لم تُغْنِ آراء القادة - من قبل - قليلًا ولا كثيرًا، والواقع يشهد بتحوُّل المواقف والرؤى - في قضايا كثيرة - من الضد إلى الضد، ومن أسباب هذه الحالة ضعف العناية بالعلم الشرعي ولا شك.

قال عمر ﷺ: «تعلموا قبل أن تسودوا»، قال البخاري: «وبعد أن تسودوا، وقد تعلم الصحابة وهم كبار»[1].

» العلم سبيل الوحدة والائتلاف:

إن ما قد يوجد من مظاهر التخالف والتدابر بين صفوف الدعاة مرده إلى أمور كثيرة، أظهرها: افتقاد العلم الشرعي أو ضعفه، وغياب فقه الدعوة إلى الله، وخفوت نور الربانية في الصدور.

ولا سبيل إلى تلافي أسباب هذه الحالة إلا بالإخلاص لله ﷻ وإحياء الربانية، وغلبة روح التأصيل العلمي، والتفريق بين المقبول والممنوع من الخلاف، والمحكم والمتشابه من النصوص، والقطعي والظني من الدلالات.

» إنما العلم الخشية:

وصف الله تعالى المبلغين عنه فقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩]. وغني عن

(١) انظر: «فتح الباري» (١/ ١٦٦).

البيان أن العلم ليس مجرد حفظ ورواية؛ بل لا بد فيه من الفهم والاستنباط، وهما معًا لا يكفيان؛ بل لا بد من العمل والتطبيق، ولا يكمل العمل والتطبيق إلا بحصول أثر في القلب والنفس والعين من خشية الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

وإذا ملأت خشية الله قلب الداعية وطالب العلم نفذ قوله، وقبلت دعوته، وإذا قل حظه من التقوى لم يُجدِه شيئًا فصل البيان، ولا شقشقة اللسان.

و«إنما الفقيه من وَرِعَ عن محارم الله، والعالِم من خاف الله»(١). وإذا ملأت خشية الله قلب الداعية وطالب العلم نفذ قوله، وقُبلت دعوته، وإذا قَلَّ حظه من التقوى لم يُجدِه شيئًا فصل البيان، ولا شقشقة اللسان.

والعلم المقصود في مجال الدعوة إلى الله على ضربين:

الأول: ما لا يسع الداعية جهله:

وهو بعد أن يتعلم كل داعية ما يصح به تدينه، وما لا يسعه أن يجهله في العقائد والعبادات والمعاملات، الإلمام العام بهدي النبي ﷺ في الدعوة، ومنهجه في الإصلاح، وسنن الله تعالى في التغيير والاستخلاف من جهة، ومن جهة أخرى الإلمام بقضايا الدعوة أهدافًا وموضوعًا وأسلوبًا، سواء في ذلك ما هو فرض عين على كل مكلَّف مخاطب بالدعوة، أو ما كان يختص به بعض الدعاة دون بعض، مع إعطاء ما يجب من الاعتبار نحو الأحوال العامة في كل عصر ومصر

(١) من كلام الشعبي رحمه الله. انظر: «حلية الأولياء» (٤/ ٣١١).

لاتصالها بحياة وعمل المدعوين، وكذا يجب معرفة ما يتحقق به الواجب من وسائل الدعوة؛ إذ للوسائل حكم المقاصد، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ ولئلا يحصل عكس المقصود من الدعوة، إذ كم من مريد للخير لم يصبه.

يجب معرفة ما يتحقق به الواجب من وسائل الدعوة؛ إذ للوسائل حكم المقاصد، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

كما أن هناك تفاوتًا بين ما يجب من الوسائل باعتبار تفاوت المقاصد والقضايا نفسها، فليس ما يجب من العلم للدعوة إلى أصول الدين المشهورة الجلية، أو ما يجب للدعوة إلى إحياء المهجور من السنن الجلية، أو إماتة البدع الرائجة، كمثل ما يجب من العلم عند الدعوة إلى دقيق المسائل وخفي السنن.

ثم إن التفاوت قائم في قدرات الدعاة وأحوالهم، والوجوب مناط بالقدرة، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. والضابط العام لفرض العين من العلم على الداعية: أن كل ما وجب على الداعية المعيَّن عمله، وجب عليه علمه، وكل بحسبه.

الثاني: فرض كفاية:

ويتعلق بالدعاة المتخصصين في مختلف علوم الشريعة، الذين يطوِّلون الباع في التخصصات المتنوعة؛ بحيث يتحقق في مجموعهم أو في بعض أفرادهم وصفُ الاجتهاد، الذي يهيئ للنظر في نوازل الوقت، ويمكِّن من استنباطِ الأحكام، وتخريجها على نظائرها، وتحقيقِ المصالح الشرعية المعتبرة وتكميلها،

ودفعِ المفاسد أو تقليلها والموازنةِ بين الإيجابيات والسلبيات؛ دعمًا وتسديدًا لمسيرة الدعوة، وحفظًا وترشيدًا لجهود العاملين.

ويتأكد على طلبة العلم والدعاة الاستمساك بالمعالم الآتية:

» تصحيح النية:

من القواعد الضرورية لطلب العلم: تصحيح النية والإخلاص في الطلب؛ فيطلب العلم لله تعالى، ولتحقيق الخشية، ولتصحيح العمل، ولزيادة الأدب، ولتحصيل فضل الاقتداء بالنبي ﷺ، وللتزود من الصالحات، ولإقامة الدين، ولقيادة الدنيا وحصول التمكين.

فإذا صحت النية على ذلك كله فـ«لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم»[1].

» التحلي بصفات الربانيين:

وذلك بالتحلي بالثبات على الحق، وسهولة الرجوع عن الخطأ، والتحلي بالزهد والورع والتواضع وإيثار الآخرة، والسمت الصالح، والتصدي للعامة بالإرشاد، والاستزادة من النوافل المتأكدة في حق أهل العلم والدعوة، كتلاوة القرآن والذكر، والصيام والقيام، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر:٩]، وليعلم أهل العلم أن «أعلم الناس بالله أخوفهم له»[2].

---

(١) من كلام ابن المبارك رحمه الله. انظر: «شعب الإيمان»، للبيقهي (٢/ ٢٧٩)، و«تاريخ بغداد»، للخطيب (١٠/ ١٦٠).

(٢) من كلام الفضيل بن عياض رحمه الله. انظر: «حلية الأولياء» (٨/ ١١١).

» **صرف الهمة إلى الجوانب المثمرة من العلوم:**

ويتأكد التواصي بالبعد عن الترف الفكري والجدال العقيم، والخلافات التي لا ثمرة لها، والحرص على الانتفاع بالعلم عملًا وهديًا وسمتًا، وكل مسألة لا ينبني عليها عمل قلبي أو بدني، فالخوض فيها خوض فيما لم يستحسن شرعًا، وكل سؤال على وجه التكلف والتنطُّع فهو مكروه.

وإذا كان العلم شجرة والعمل ثمرة -والشرف للشجرة- فإن الانتفاع لا يحصل إلا بالثمرة، فإن لم تكن ثمرة فلا بقاء للشجرة، «هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»[1]. فإذا علم الإنسان ثم عمل سُمي فقيهًا، قال ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيرًا يفقهه في الدين**»[2].

هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل.

» **تقديم ما حقه التقديم:**

وتتأكد البداءة بالتوحيد والإيمان من خلال آيات القرآن وصحيح السنة، والتثنية بالفقه والأحكام، كل ذلك على منهج السلف الصالح في التلقي والاستدلال، والعناية بالأخذ بالدليل وطلبه من جهة، وتحديث

فيكال لكل إنسان بمكيال عقله، ويوزن له بميزان فهمه، لتحصل الفائدة والاعتبار، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار.

(١) من كلام علي رضي الله عنه «اقتضاء العلم العمل»، للخطيب البغدادي (ص٣٦)، «تدريب الراوي»، للسيوطي (٢/ ٢٦١).

(٢) أخرجه: البخارى، كتاب العلم، باب «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»، (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب «النهي عن المسألة» (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

الناس بما تبلغه عقولهم وتألفه أسماعهم من جهة أخرى، فيكال لكل إنسان بمكيال عقله، ويوزن له بميزان فهمه، لتحصل الفائدة والاعتبار، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار.

» العناية بمقاصد الشريعة وقواعدها:

كما تتأكد العناية بضبط التخريجات والتطبيقات الدعوية على القواعد الشرعية الفقهية والأصولية على حد سواء، فإن مثل قواعد الاجتهاد «لا مساغ للاجتهاد في مورد النص» (١) مع «الاجتهاد لا ينقض بمثله» (٢) مع «لا ينكر تغير الأحكام الاجتهادية بتغير الأزمان» (٣)- يمكن أن نستخرج بدلالتها ضوابط دعوية عديدة، وكذا قواعد المصالح والمفاسد بجملتها، كما ينتفع بالقواعد الفقهية في نفس الصدد مثل: «الميسور لا يسقط بالمعسور» (٤)، «من استعمل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه» (٥)، «المفضول قد يصير فاضلا لمصلحة راجحة» (٦).

وذلك بالتفريق بين الضروريات والحاجيات والتحسينيات من أحكامها، ومعرفة رتبها والمقدم منها عند التعارض، والتمييز بين رتب المأمورات والمنهيات، وإدراك مراتب الأدلة والأحكام، ومعرفة مواضع

---

(١) انظر: المادة (١٤) من مواد «مجلة الأحكام العدلية».
(٢) انظر: المادة (١٦) من مواد «مجلة الأحكام العدلية».
(٣) «شرح القواعد الفقهية»، لأحمد الزرقا.
(٤) «الأشباه والنظائر»، للسيوطي (ص٢٩٣).
(٥) «الأشباه والنظائر» (ص٢٨٣) .
(٦) «مجموع الفتاوي» (٢٢/ ٣٤٥)، (٢٤/ ١٩٤-١٩٥).

الإجماع والاتفاق، ومواضع السعة والاختلاف، وأسباب الترجيح ونحو ذلك.

» التأصيل لفقه النوازل:

يتعين على الدعاة الفقهاء وعلى الفقهاء الدعاة الحرص على التأصيل الشرعي لفقه النوازل، لينتفع به في أبواب الفقه عامة، وفي مسائل السياسة الشرعية المعاصرة خاصة، وتكوين وبناء الملكة الأصولية التي تهيّئ للتعامل مع المسائل المستحدثة واستنباط أحكامها الشرعية.

وقد كانت همة أكابر العلماء إلى العناية بالتأصيل مصروفة، ومن ذلك: قول شيخ الإسلام -في مجلس للتفقه-: «أما بعد: فقد كنا في مجلس التفقه في الدين، والنظر في مدارك الأحكام الشرعية تصويرًا، وتقريرًا، وتأصيلًا، وتفصيلًا، فوقع الكلام في... فأقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا مبني على أصل وفصلين..»[1].

» دراسة السنن الإلهية في التغيير:

يجب أن يكون في سُلَّمِ أولويات طالب العلم دراسةُ سنن الله في المجتمعات والتغيير، وأسباب التمكين والاستخلاف، وأسباب الضعف والهلاك وسنن الاستبدال، ودراسة واقع الأمة وجوانب الضعف والقوة، وعلى الكبار أن يوجهوا ناشئة الدعوة وطلبة العلم إلى حمل همِّ الإسلام وقضايا المسلمين، على أن هذا النوع من فقه السياسة الشرعية ليس نافلة من العلم؛ بل هو داخل ضمن واجبات الوقت.

(١) «مجموع الفتاوي» (٢١/ ٥٣٤).

» اعتماد أصل التلقي بالمشافهة ما أمكن سبيل:

إذ «من دخل في العلم وحده خرج وحده»[1]، فيتأكد الحرص على الأخذ عن الأكابر، ثم اعتماد البدائل الأخرى عند التعذر، كالإفادة من الدروس المسجلة أو المصورة، والمدارسة مع المتقدمين من الطلاب، وأساليب التعلم عن بعد ونحو ذلك.

» الحرص على التدرج في سلَّم التعلم:

وقد كان السلف يعلمون ويربون بصغار العلم قبل كباره[2]، ويحرصون على الترقي في العلوم الشرعية كافة بقدر من التوازن بينها، وتأسيس برنامج عملي في طلب العلم، يُعْنَى بالأصول والكليات قبل الفروع والجزئيات، ويهتم بعلوم الغايات، ولا يغفل علوم الوسائل والآلات، يبدأ بالتقليد وينتهي بالاجتهاد والإبداع ويمر برتبة الاتباع.

»ضبط مرجعية الكتب والعلماء:

فالتلقي يجب أن يكون عن الكتب الصحيحة في مناهجها، الصافية في مواردها، المعتمدة على الكتاب والسنة في مجملها.

فالتلقي يجب أن يكون عن الكتب الصحيحة في مناهجها، الصافية في مواردها، المعتمدة على الكتاب والسنة في مجملها، الموافقة لأهل السنة في عقائدها، مما ألفه المتقدمون من الأئمة المعتبرين، المشهود لهم بالإمامة والفقه في الدين، والورع والتقوى لرب العالمين، وكذا ما كان على سننهم من كتب المعاصرين،

---

(١) «الجواهر والدرر»، للسخاوي (١/ ٥٨).
(٢) انظر: صحيح البخارى (١/ ٣٧).

التي عنيت بالتأصيل، وأحسنت في الفهم والتأويل.

وتتأكد العناية بالمختصرات حفظًا وضبطًا ثم بالشروح استيعابًا وفهمًا، ثم بالمطولات سردًا وجردًا.

» التقويم والتوثيق:

ويقصد بهما الاهتمام بمتابعة التقويم العلمي للمتعلم، بالاختبار والتوثيق، والتوجيه إلى الابتكار لا التكرار، وصرف الهمم بعد الاستيعاب إلى التكميل، لا مجرد الإعادة والتطويل، والعناية بالتفهيم بعد التلقين.

» الالتفاف حول علماء الآخرة:

بداية من تعلُّم توقير العلماء المتبعين، والتأدب معهم، ورعاية حقوقهم بالغيب والشهادة، والتواصي معهم بالحق، والتواصي معهم بالصبر، وانتهاءً بتفويض أمر الملمات والقضايا المهمات إليهم، والوقوف وراءهم، والصدور عن فتاويهم، وجمع القلوب عليهم.

ينبغي الحذر ممن اتخذوا الدين حرفة وصنعة، لا عقيدة وقربة، يأمرون بالخير فلا يفعلونه، وينهون عن المنكر فينتهكونه، ويعظون فلا يتعظون.

والحذر ممن اتخذوا الدين حرفة وصنعة، لا عقيدة وقربة، يأمرون بالخير فلا يفعلونه، وينهون عن المنكر فينتهكونه، ويعظون فلا يتعظون، يحرفون الكلم عن مواضعه تارة، ويكتمون الحق أخرى، ويلبسون الحق بالباطل ثالثة، ويقولون الباطل رابعة.. وهكذا، قال -تعالى في حقهم-: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا

لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٥، ١٧٦]، ورضي الله عمن قال: «لا يكون الرجل عالمًا حتى لا يحسدَ من فوقه، ولا يحتقرَ مَن دونه، ولا يبتغي بعلمه ثمنًا»[1].

» التخلي عن الآفات:

والتنبه إلى خطورة السلبيات والمزالق في طريق طالب العلم كالكبر، والتوقر قبل أوانه، والعزلة عن واقع الأمة والانفراد، والتعصب للرأي أو المذهب، وازدراء المخالف، والسطحية، والولع بالغرائب، والتعالم، والجدال المذموم، والرياء وقوادح الإخلاص، والتصدر قبل التأهل، والاعتناء بالصورة والمظهر دون الحقيقة والجوهر، والميل إلى التعسير وترك التيسير، والحذر من فتنة النساء، فما يئس الشيطان مِن عبدٍ إلا أتاه من قبل النساء، ألا ونقل الخطى إلى المحارم؛ فإنها حالقة العلم، ومبيدة الفهم.

(١) أخرجه: الدارمي في «السنن»، المقدمة، باب «من قال العلم تقوى الله وخشيته»، (٢٩٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١١٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٠٦). من كلام ابن عمر رضي الله عنهما.

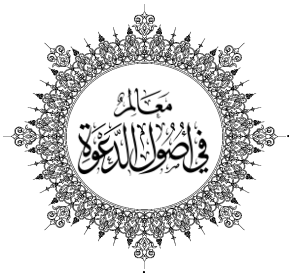

الأصل السادس

6

التربية والتزكية

التربية والتزكية

إن عملية نقل المعلومات الذهنية من حيز الإدراك الجامد إلى حيز التطبيق العملي الحي، بصورة متدرجة، ومتأنية، ومتكاملة، ومتوازنة، ومستمرة، وبطريقة عميقة جذرية مؤثرة، هو ما تعنيه عبارة التربية والتزكية.

فهي في حقيقتها تقريب المدعو من رتبة الكمال البشري بكل وسيلة مشروعة، وعليه؛ فالتربية تصنع الأجيال، وتهيئ الأشبال ليرتقوا ذُرى الكمال، متسلحين بعقائد صحيحة، وأعمال صالحة، وأخلاق زاكية في الدنيا، كما تهيئهم لأنعم نعيم أهل الجنة في الآخرة، قال تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وإذا أُطلقت كلمة الدعوة فإنها تشمل في طياتها البلاغ والتربية.

وإذا اجتمعت مع التربية في سياق واحد كانت الدعوة حينئذ البلاغ والتعريف، وكانت التربية البناء والتكوين، فالأولى في حق الغافلين، والجاهلين، والمعرضين المصرِّين، والثانية في حق المستجيبين المقبلين.

وأهمية التربية والحاجة إليها اعتمادًا وتطبيقًا وممارسة في الدعوة إلى الله تظهر في الجوانب الآتية:

» التربية مهمة الأنبياء:

لا شكَّ أن الاشتغال بالتربية والتزكية هو طريق الأنبياء والعلماء والمصلحين قاطبة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:٢].

والتزكية هي التعبير القرآني لمصطلح التربية.

والتزكية هي التعبير القرآني لمصطلح التربية، وإن كان في معنى التربية من التعاهد والمتابعة للمتربي الصغير ما ليس في التزكية، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]، فكأن التزكية هي ثمرة التربية؛ ولذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤]، فالتربية من أول أعمال الأنبياء والمرسلين وأولاها، وقد قال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]. وفي ممارسة النبي ﷺ للتربية مع أصحابه صفحات مشرقة، حق على كل داعية أن يطالعها مقتديًا ومهتديًا.

التربية هي التي تحول العقيدة المستكنة في الضمائر يقينًا إلى حقيقة سلوكية في الواقع.

والتربية هي التي تحول العقيدة المستكنة في الضمائر يقينًا إلى حقيقة سلوكية في الواقع، ترسخ معاني الألوهية في القلب، ليصبح يقينًا لا تزلزله محنة وابتلاء، كما لا تغيره نعمة ورخاء، وهذه التربية تحتاج إلى ترسيخ الأخلاق، وتقويم السلوك، وتعميق الوعي. ولا يتحقق هذا إلا بعمل مستمر دائب، وعزم لا يلين.

وأخيرًا فإنه: «لا يصلح آخِر هذا الأمر إلا ما أصلح أوله»(١).

» التربية عصمة من الفتن:

وتتعاظم أهمية التربية؛ لأن الدعوة والدعاة يتعرضون -فوق كل أرض وتحت كل سماء- للفتن أنواعًا منوعة، بالخير والشر، والرغبة والرهبة، ولا يعصم - بإذن الله - من فتنة السراء والضراء إلا تربية تعظِّم أمر الآخرة، وتصغِّر شأن الدنيا، وتؤثر ما يبقى على ما يفنى، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٤-١٧].

» التربية وقاية من مفاسد الزمن:

يتميز هذا الزمان بتقدم مذهل في وسائل التقنية ونقل المعلومات وسرعة التواصل والاتصالات، وحقق هذا مصالح معلومة، وواكبها مفاسد مشهورة عبر الفضائيات والشبكات العنكبوتية، فدارت عجلة الفساد سريعة عبر تلك المعابر، واقتُحِمت حصون الأمة وهُدِّدت من داخلها، كل ذلك يقتضي عناية خاصة بالتربية؛ لتكون حصانة للأمة بعامة وللدعاة بخاصة.

(١) من كلام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: «التمهيد»، لابن عبد البر (٢٣/ ١٠).

ويتميز هذا الزمن بأزمة ثقة بين أهله، وبين طبقات الناس فيه، حكامًا ومحكومين، رؤساء ومرءوسين، شيبًا وشبابًا، رجالًا ونساءً، والتربية على حسن الظن، وتقديم الخير، وقبول العذر، وسلامة الصدر حصانة للأمة بعامة، وللدعاة بخاصة.

ويتميز هذا الزمان بأزمة في القدوة، فلا تتحقق في الأب بالنسبة للولد، ولا في الأم بالنسبة للبنت، ولا في الأستاذ بالنسبة للطالب، ولا في الرأس بالنسبة للمرءوسين.

والتربية على العمل بالعلم، والتحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل، والاقتداء والتأسي بالمثل الكامل يحقق حصانة للأمة بعامة، وللدعاة بخاصة.

ويتميز هذا الزمان بأزمة في الكفاءة والإتقان، فيشتكى من جلد الفاجر وعجز الثقة، وتضعف القوة والكفاية، ويخف الصدق والأمانة.

والتربية على إحسان العمل، ورعاية حقوق الله تعالى وحقوق خلقه، أداءً للأمانة، وقيامًا بالواجب، يمثل حصانة للأمة بعامة، وللدعاة بخاصة.

والتربية على إحسان العمل، ورعاية حقوق الله تعالى وحقوق خلقه، أداءً للأمانة، وقيامًا بالواجب، يمثل حصانة للأمة بعامة، وللدعاة بخاصة.

» التربية سبيل التمكين:

لم تُرَ الأمة الإسلامية بحالة من الضعف كهذه الحالة اليوم، حين استبدلت شريعتها، واستوردت مناهجها، وسقطت في التبعية لأعدائها، والقيام بواجب التربية والتزكية للنفوس عامة؛ هو في الحقيقة تهيئة للأمة للمطالبة بتحقيق وتطبيق شرع الله في الأرض، وما أحسن مقولة من قال:

«أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم على أرضكم»[1].

وإن العناية بالتربية لطائفة مخصوصة من الأمة يهيئ لها فئاتٍ فذّةً قادرةً على البذل والعطاء، وتحقيق الآمال، والمرابطة على الثغور العلمية والعملية.

وإن العناية بالتربية لطائفة مخصوصة من الأمة يهيئ لها فئاتٍ فذّةً قادرةً على البذل والعطاء، وتحقيق الآمال، والمرابطة على الثغور العلمية والعملية حماية للدين من كيد الكائدين، وعبث العابثين.

وصفوة القول أن الواجب التربوي هو طريق الخلاص، وأس التمكين.

» الخلل التربوي هو الداء:

كثيرًا ما يُرَدُّ الفشل في تحقيق الأهداف الدعوية إلى أسباب داخلية.

وعمدة هذه الأسباب عند التحقيق هو الخلل التربوي:

فتارة يكون الخلل بسبب ضعف التربية.

وتارة بسبب عدم تدرج التربية، وقفز الأغرار فوق أكتاف الثقات.

وتارة بسبب عدم تكامل التربية، فتتضخم قضايا وأمور على حساب أمور أخرى لا تقل أهمية.

وتارة أخرى بسبب عدم التوازن بين التربية وأصول ومنطلقات أخرى في الدعوة إلى الله.

وهكذا فالتربية الجادة المتكاملة المنضبطة دعامة تحقيق الأهداف،

(١) من كلام الأستاذ حسن الهضيبي رحمه الله، ونقلها عنه علامة الشام الشيخ الألباني رحمه الله في رسالته: «التصفية والتربية» (ص٣٣)، ط. مكتبة المعارف.

سواء أكانت أهدافًا علميةً أم عمليةً.

وقد عدَّ الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ أمارات العالم فذكر منها: «أن يكون ممن ربَّاه الشيوخ في ذلك العلم، لأخذه عنهم وملازمته لهم، فهو الجدير أن يتصف بما اتصفوا به من ذلك، وهكذا كان شأن السلف الصالح، فأول ذلك ملازمة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ وأخذهم بأقواله وأفعاله...، وصار مثل ذلك أصلًا لمن بعدهم، فالتزم التابعون في الصحابة سيرتهم مع النبي ﷺ حتى فقهوا ذروة الكمال في الأمور الشرعية»[1].

وتأسيسًا على ما سبق فإن التربية ضرورة دعوية لا مناص منها وذلك لأمور كثيرة منها:

» اتساع نطاق العمل الدعوي:

فقوافل التوبة تئوب إلى الله تترى، وهي خليط متنافر من سلوكيات تربوية لا يجمع بينها إلا أنها بعيدة عن المنهج السوي، وقد انتقلت إلى الصف الإسلامي بكل ما تحمله من رواسب المسالك الماضية، وإن تصعيدها في مدارج العمل الإسلامي من غير تصفية وتربية جادة لا بد أن ينعكس بآثار وبيلة على العمل بأسره، ما لم يتدارك ذلك بتربية حاسمة ومؤثرة، وإلا يكن هذا؛ فإن حديثي العهد بالجاهلية والمعاصي والثقافات المنحرفة سيقولون كما قيل -من قبل-: ﴿**ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ**﴾ [الأعراف:١٣٨]، أو «**اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط**»[2] فلا بد من إزالة أوضار الماضي وتأسيس بنيان الحاضر على أسس مستقيمة وقواعد متينة.

---

(١) «الموافقات» (١/ ٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٢١٨)، والترمذي: كتاب الفتن، باب «لتركبن سنن من قبلكم» (٢١٨٠)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن حبان في «صحيحه» (١٥/ ٩٤)، من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

» أهميـة تنشئة وإفراز الصفوف الثانية والكفاءات البـــديلة وصناعة الأجيال:

فلا يصح ولا يصلح الاعتماد -بعد الاتساع- على شخصيات آسرة، وقيادات كبرى فحسب؛ ذلك أن العمل التربوي يعتمد على المخالطة والاحتكاك المباشر، ولا يتأتى هذا لتلك القيادات الأولى، فلا بد من همزة الوصل بين الأجيال، وهم أفراد تلك الصفوف الثانية من طلبة العلم والدعاة النابهين الذين يعتمد عليهم في تحريك القلوب، ومتابعة التعليم، والتقويم المستمر، وعليه فلا بد من جهد تربوي ضخم لتربية أدوات ووسائل التغيير من الدعاة والمصلحين.

» تنوع مجالات الدعوة وتخصصاتها ووسائلها:

ويحتاج الأمر إلى من يسد الثغرات في سائر المجالات من الطاقات والكفاءات، ولا يتأتى هذا إلا بوجود الإنتاج التربوي المتين الغزير الذي يوصف بالرجولة والصدق، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾ [الأحزاب:٢٣]، فإن مجالات كثيرة قد أشرعت أبوابها تنتظر من يلجها ويشارك فيها، ويضرب للدعوة فيها بسهم، وهذا يستلزم اعتماد التربية وسيلة وغاية في وقت واحد، مع التنبه إلى خطورة الاستعجال في التجميع على حساب التربية المنضبطة.

ومنهج التربية والتزكية عند أهل السنة والجماعة يقوم على المعالم الآتية:

» الربانية:

إن الربانية هي تحقق بتلك الصلة الوثيقة بالله تعالى، أداءً للفرائض، واجتنابًا للمحارم، واستدامة للذكر،

إن الربانية هي تحقق بتلك الصلة الوثيقة بالله تعالى، أداءً للفرائض، واجتنابًا للمحارم، واستدامة للذكر، وعناية بالشكر، وتحليًا بالصبر.

وعناية بالشكر، وتحليًا بالصبر، وإيثارًا للإيثار، واتشاحًا باليقين، وتلذذًا بالصيام، وتنعمًا بالقيام، وتربية بصغار العلم قبل كباره، قال تعالى: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٧٩]، أولئك الربانيـون، فهم العلماء العاملون، والحكماء المربُّـون، والفقهاء المعلِّمون[١].

إن سياج الربانية يقيم في قلب المتربي فرقانًا بين الحق والباطل، وينشئ حاجزًا بينه وبين مضلات الفتن، ويضبط السلوك ويقيم الجوارح على رعاية السنن والهدي الظاهر، وحسن السمت، وملازمة الأدب، وإذا كان الإسلام هو الحل لمشاكل البشرية، فإن الربانيين هم الحل لمعظم مشكلات الدعوة الإسلامية.

» الوسطية:

فكما أن أهل السنة وسط بين فرق الأمة في مسائل الاعتقاد، فهم – أيضًا- وسط في باب التربية والسلوك بين طرفي الإفراط والتفريط.

وهم وسط في باب الإخلاص بين المرائين والملامية[٢].

وهم وسط بين المشتغلين بإقامة العبادات القلبية دون العملية كبعض الصوفية، والمشتغلين بإقامة رسوم العبادات الظاهرة فقط كبعض المتفقهة، فكانوا أهل العبادة الظاهرة والباطنة[٣].

وهم وسط بين من يريد مِن الله ولا يريد الله، وبين من يريد الله ولا

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوي» (١/ ٦٣)، «تفسير الطبري» (٣/ ٣٢٧).

(٢) «المراءون»: يعملون الصالحات بقصد رؤية الناس لهم وطلب مدحهم، وأما «الملامية» فيفعلون ما يلامون عليه من المخالفات ويقولون نحن متبعون في الباطن. انظر: «مجموع الفتاوي» (٣٥/ ١٦٤)، و«مدارج السالكين»، لابن القيم (٣/ ١٧٧، ١٧٨).

(٣) انظر: «بدائع الفوائد»، لابن القيم (٣/ ٢٢٩، ٢٣٠).

يريد من الله، فهم يريدون رضا الله وجنته، وأما غيرهم فمنهم من يريد رضا الله ولا يريد جنته، كحال كثير من المتصوفة، ومنهم من يريد نعيم الجنة المخلوق، ولا يريد رضا الله كحال كثير من المتكلمة[1].

وهم وسط بين أصحاب التفريط والاستهتار والإسراف والمبالغة في المتع والترف، وأصحاب الإفراط في التصوف والرهبانية والتشديد على النفس وتعذيب البدن.. فلا إسراف في تنعيم الأبدان ولا تنطع وحرمان.

» السلفية:

ومنهج التربية والتزكية يقوم على موافقة نصوص الشارع في السلوك لفظًا ومعنى.

ومنهج التربية والتزكية يقوم على موافقة نصوص الشارع في السلوك لفظًا ومعنى، فليس أهل السنة من الذين وافقوا النصوص في اللفظ دون المعنى كالباطنية، وليسوا كالذين تكلموا في المعنى بألفاظ مبتدعة ككثير من الصوفية، وليسوا كالذين خالفوا النصوص لفظًا ومعنى كالفلاسفة والملاحدة، وإنما هم - بحمد الله- أتباع السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة المهديين، الذين أقاموا معالم السلوك وتزكية النفوس، وتحققوا بالمعاني وتمسكوا بالمباني، علمًا وحالًا، وعملًا ومقالًا، فلا يشتبه لديهم الزهد الشرعي بالعجز والكسل، ولا التوكل بالتواكل، ولا الورع الشرعي بالبدعي.

» الإيجابية:

وهي تعني: المبادرة العملية على وجه السداد والمقاربة، لا المثالية أو

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٨٢).

السلبية، فهي منهج الواقعية الإيجابية، والتي تعني: القصد في الأمر كله؛ ومراعاة أحوال المكلفين، وتحقيق الملاءمة والمواءمة بين طبيعة هذا الدين وطبيعة المكلفين، وفي الحديث: «**سدِّدوا وقارِبوا، واغْدُوا ورُوحوا، وشيءٌ من الدُّلجةِ، والقَصدَ القَصدَ تَبلُغوا**»(١).

فأولى القربات الفرائض المكتوبات، وأما تكليف النوافل المندوبات فبحسب الوسع والطاقة، و«**أحبّ الأعمالِ إلى الله أدوَمُها وإن قلَّ**»(٢)، و«المؤمن يقول قليلًا ويعمل كثيرًا»(٣)، والمثل الكامل في التربية والسلوك هو رسول الله ﷺ، أطهر الخلق نفسًا وأقومهم منهجًا، كما قال ﷺ: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**»(٤).

قال الحسن البصري: «إن هذا الدين دين واصب، وإنه من لا يصبر عليه يدعه، وإن الحق ثقيل، وإن الإنسان ضعيف، وكان يقال: ليأخذ أحدكم من العمل ما يطيق؛ فإنه لا يدري ما قدر أجله، وإن العبد إذا ركب بنفسه العنف، وكلَّف نفسه ما لا يطيق، أوشك أن يسيِّب ذلك كله، حتى لعله لا يقيم الفريضة، وإذا ركب بنفسه التيسير والتخفيف، وكلَّف نفسه ما تطيق كان أكيس، وأمنعها من العدو، وكان يقال: شر السير الحقحقة(٥)»(٦).

---

(١) أخرجه: البخاري، كتاب الرقاق، باب «القصد والمداومة على العمل»، (٦٤٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) من كلام الأوزاعي رحمه الله. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٢٥).
(٤) أخرجه: البخاري، كتاب الإيمان، باب «قول النبي ﷺ أنا أعلمكم»، (٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٥) الحَقْحَقَةُ: شدة السير وأتعبه للظهر. انظر: «معجم مقاييس اللغة»، لابن فارس (ص٢٤٥).
(٦) «الزهد»، لابن المبارك (ص٤٦٨).

ومن سمات الإيجابية: الواقعية في إدراك أن تفاوت القدرات إنما هو بسبب تنوع المواهب واختلاف الاستعدادات؛ ذلك أن الله قسم الأعمال والأخلاق كما قسم الأموال والأرزاق، وعلى كلٍّ أن يرضى بما فتح له فيه، وأفضل الأعمال بعد الفرائض يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه.

إذا ازدحمت شعب الإيمان قدم ما كان أرضى لله وهو عليه أقدر.

قال شيخ الإسلام: «وإذا ازدحمت شُعب الإيمان قُدِّمَ ما كان أرضى لله وهو عليه أقدر، فقد يكون على المفضول أقدر منه على الفاضل، ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل، فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له، وهو في حقه أفضل، ولا يطلب ما هو أفضل مطلقًا، إذا كان متعذرًا في حقة أو متعسرًا يفوته ما هو أفضل له وأنفع»(١).

ومن الناس من فتح الله عليه في باب دون باب، ومنهم من فتح الله عليه في كل باب، وضرب له في كل خير بسهم، وما على مَنْ دُعِيَ يوم القيامة من أبواب الجنة الثمانية من حرج، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وفي الجملة فإن التربية أصل ضخم وأساس متين، لا يتم بدونه تغيير، ولا تنجح بدونه دعوة، وليس له غاية ينتهي عندها، ولا يستغني عنها الكبير فضلًا عن الصغير، ولا المنتهي فضلًا عن المبتدي.

» وللتربية أنواع متعددة:

فتربية علمية تؤهل القادرين، وتبني ملكات الفهم، وتضبط قواعد العلم، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

(١) «مجموع الفتاوي» (٧/ ٦٥١، ٦٥٢).

وأخرى وجدانية تُعْنَى بالمشاعر، وترعى الخواطر، وتوقظ الضمائر، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وثالثة جهادية تشعل حماس الصادقين، وتهيئ للسعي إلى التمكين، وتدفع عن ديار المسلمين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣].

ورابعة إيمانية تصون الإيمان أن يبلى، واليقين أن يُذوى، والفرد أن يتردى، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [البقرة:١٣٧].

وللتربية مستويات ومجالات؛ منها ما يوجه للأمة بعامة، ومنها ما يوجه لقاعدة الدعوة وقطاع الصحوة بخاصة، وأخص من ذلك تربية القادة وتأهيلهم للريادة.

من أخطر آفات التربية: التهوين من شأن العقيدة، وضعف التربية على معانيها، والتربية على التقليد والتعصب لراية أو شعار دون الإسلام

ووسائلها جميعًا أعم من الدرس والموعظة والصحبة والرحلة، ولكن جوهرها القدوة!.

وكما أن لكل عمل عظيم آفاتٍ، فمن أخطر آفات التربية: التهوين من شأن العقيدة، وضعف التربية على معانيها، والتربية على التقليد والتعصب لراية أو شعار دون الإسلام، والمغالاة في النظرة للتربية الخاصة على حساب البلاغ المبين للدين، والاهتمام بالشكل دون المضمون، والعناية بالظاهر على حساب الباطن، وفقدان التوازن بين أنواع التربية ومجالاتها، واتخاذ الترخص الجافي منهجًا في مسائل الفقه والأحكام، أو اعتماد التنطع الغالي منهجًا في مسائل التوحيد والإيمان، وكما أن التهور والاندفاع اليائس يعكس خللًا تربويًّا، فالتثاقل والتباطؤ ينبئ عن عجز وكسل، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

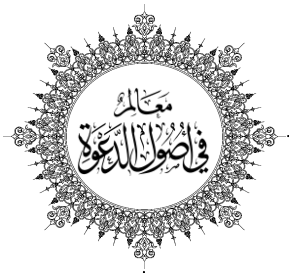

الأصل السابع

7

الوعي والبصيرة بالواقع

الوعي والبصيرة بالواقع

إن الوعي والبصيرة بالواقع يعني حالة من اليقظة تقتضي فهم الأشياء ومدلولاتها، وتجميع عناصرها السابقة وربطها في محاولة لإدراك الكل، كما يعني استعدادًا ذهنيًّا لاستيعاب الأحداث، والتفاعل معها بشكل صحيح، وهذا الوعي يستدعي بحثًا في العوامل المؤثرة في المجتمعات، والقوى المهيمنة على الدول، والأفكار والمكائد الموجهة ضد الأمة، والسبل المشروعة لاستبانة سبيل المجرمين، وحماية الدعوة من كيد المبطلين، وكما أن العلم بالخير سبب إلى فعله؛ فإن العلم بالشر سبب إلى منعه.

وعليه؛ فإن الدعوة إلى اللّه لا غنى بها عن إدراك الواقع وفهم علاقاته، واستيعاب أحداثه، كما أنه لا بد من معرفة الحكم الشرعي وتحصيل آلاته، ومعرفة طرق استثماره واستنباطه.

ولا شك أن في نهي المؤمنين عن سَبِّ آلهة المشركين، ونهي النبي ﷺ عن قتل المنافقين، وانتهائه عن هدم الكعبة وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم - حكمةً بالغةً، لما يترتب على ذلك كله من المفسدة العظمى في الدين، كما أن إمضاءه ﷺ لصلح الحديبية بشروطه، وإعطاءه بعض المؤلفة قلوبهم العطايا العظيمة من الغنائم، ومداراته لبعض القوم لما يترتب على ذلك كله من المصلحة العظمى في الدين- في ذلك كله أكبر دليل على أهمية معرفة الواقع في الخلق، والواجب في الشرع سواءً بسواء.

ومن مقاصد انطلاق الدعوة من إدراك الواقع:

» تحقيق البصيرة في الدعوة إلى الله:

 إن الداعية -بالضرورة- يعيش في واقع ما، يمتحن فيه وبه، ويطالب شرعًا بتحصيل البصيرة في دعوته، وهذا إنما يتأتى بمعرفة واقع المجتمعات وأفرادها وهيئاتها ومؤسساتها، كما يتحقق بالاطلاع على وسائل وأساليب العصر المتجددة التي تخدم الدعوة وتدفع بها قدمًا للأمام.

 وامتلاك الدعوة لرؤية صحيحة واضحة عن مجتمعاتها ومشكلاتها وكيفية التعامل معها وأساليب علاجها تحول دون الفوضى والتخبط، وتمكن الدعاة من اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، ووضع التخطيط الملائم للوضع القائم، وتجعل المواصلة والاستمرار عملًا ممكنًا، فمن

وامتلاك الدعوة لرؤية صحيحة واضحة عن مجتمعاتها ومشكلاتها وكيفية التعامل معها وأساليب علاجها تحول دون الفوضى والتخبط.

الخطأ البيِّن الاستعاضة عن العلم والوعي بالواقع بأمر آخر ولو كان هذا الأمر هو بذل النفس والنفيس؛ لأن البذل لا ينتج ثمرته، ولا يعطي نتيجته إلا إذا استوفى شروط إنتاجه، وامتنعت موانعه.

فمن لم يعرف الواقع في الخلق، والواجب في الحق، لم يعرف أحكام الله في عباده، وإذا لم يعرف ذلك كان قوله وعمله بجهل، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.

فمن لم يعرف الواقع في الخلق، والواجب في الحق، لم يعرف أحكام الله في عباده.

وأخيرًا: فإن هذا الوعي يمنع تكرار الأخطاء في ساحة العمل الدعوي، والأصل أنه: «**لا يُلدَغُ المُؤمِنُ من جُحرٍ واحدٍ مرَّتين**»(١).

» تسديد الفتاوي في النوازل:

ولا شك أن ساحة الدعوة الإسلامية ملأى بنوازل عامة وقد اضطربت بشأنها الفتوى كثيرًا، ويرجع هذا الاضطراب في الغالب إلى تفاوت في توصيف الواقع وتكييفه، وقد أشار أهل العلم سلفًا وخلفًا إلى أهمية فهم واقع المسألة، مع فهم النصوص الشرعية المتعلقة بها، وفقه تنـزيل النصوص على الواقع، وبهذين الركنين يتم تسديد الفتوى وتنضبط الأحكام فلا يبقى مجال لطاعن أو مخالف، ولا تزال فتاوي كثير من علمائنا المتقدمين -رحمهم الله- حية وفعَّالة في عالم اليوم، وما ذاك إلا لأنها جمعت بين ركني الفتوى.

(١) أخرجه: البخاري، كتاب الأدب، باب «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»، (٦١٣٣)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»، (٢٩٩٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

يقول ابن القيم: «لا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم.

 أحدهما: فهم الواقع، والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات، حتى يحيط به علمًا.

 النوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع ثم يطبق أحدهما على الآخر، فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجرًا، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله ﷺ»[1].

 وعلاوة على ما سبق فإن تجاهل الواقع يُفوِّتُ إعمالَ قاعدةِ سَدِّ الذرائع؛ فيقع كثير من الزلل بسبب عدم النظر في المآلات، كما يؤدي إلى تقديم الداعية للإسلام في إطار نظري مجرد عن واقع الناس الذي يحيونه، فلربما عالج الداعي مشكلة لا تمس حاجة إلى علاجها، وأغفل أخرى هي أساس انحراف في مجتمعه، وإنه ليلحظ في دعوات الأنبياء عليهم السلام أنهم كانوا يضيفون إلى دعوة التوحيد الدعوة إلى تصحيح انحرافات المجتمعات الأخلاقية والاقتصادية والسياسية... وغير ذلك، كل بحسب ما كان في واقعه وانتشر في مجتمعه، فموسى عليه السلام يحارب الطغيان السياسي، وشعيب عليه السلام يحارب الفساد الاقتصادي، ولوط عليه السلام يحارب الانحراف الأخلاقي... وهكذا، كل هذا مع النظر في المآلات ومخاطبة الناس على قدر عقولهم، وسيرة

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ١٢٨).

النبي ﷺ في الدعوة تنطق بجميع ذلك.

» استبانة سبيل المجرمين وتعرية مناهج المنحرفين:

وهذا منهج قرآني نبوي سديد؛ فالقرآن فاضت آياته بفضح المنافقين، وكشف كيد الكائدين من اليهود والنصارى، ووقائع السيرة وأحاديث السنة قد تواتر فيها هذا المعنى، والدعوة وهي تجلي سبيل المؤمنين لا غنى لها -من خلال إدراك الواقع- عن استبانة سبيل المجرمين، فتنهى عنها، وتسقط الثقة بها، بالتصريح تارة، وبالتلميح أخرى، وهذا كله مما يرفع وعي الأمة وينفي عنها الغثائية المذمومة، ويحقق الهوية الإسلامية، والخيرية الشرعية.

» تحصيل التكامل والتوازن التربوي:

إن الوعي بالواقع سياسيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا لبنة أساسية في بناء الشخصية المسلمة، في هذا الزمان وفي كل زمان

إن الوعي بالواقع -سياسيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا- لبنة أساسية في بناء الشخصية المسلمة، في هذا الزمان وفي كل زمان، ولا يسوغ بحال أن يربى المسلم علميًّا وفكريًّا ويهمل في الجوانب العملية والواقعية، وعن هذا الخلل التربوي تنشأ آفات علمية وعملية معًا؛ فمن انشغال فكر المسلم بقضايا ليست مطروحة تحت سمع وبصر الزمان والمكان، واستدعاء قضايا ومشكلات تاريخية انقضت ظروفها واضمحلت أصولها، إلى حجز العقل المسلم وسد منابع الثقافة عليه، إلى تعويق السعي للتمكين، إلى بقاء الأمة في عزلة عن شئونها السياسية والاجتماعية، وسقوطها في هوة التبعية الاقتصادية والتقنية، وصدق الله تعالى حيث يقول:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى:٣٠].

» التفاعل الصحيح مع قضايا الدعوة:

إن حسن الفهم والإدراك لما يجري يمكِّن من الاستشراف المبكر للأحداث، والتفاعل الإيجابي السريع مع مستجدات الواقع ومتطلبات الدعوة، ويعين على أخذ الأهبة، والتوقي من الفتن والمعاطب، كما أن إدراك الداعية للواقع بأبعاده الكاملة يملؤه حماسًا وقوة في حمل قضايا الدعوة «بهمة عالية وعزم قوي لا يثنيه عنه كثرة خصومه، مهما تكالبت عليه قوى الشر، إذ لا يعتبرها في جنب الله إلا كالفراش»[1].

لا تنبغي للدعاة راحة إلا في الجنة.

فلا تنبغي للدعاة راحة إلا في الجنة، «مذ تيقظوا ما ناموا، ومذ سلكوا ما وقفوا، فهمهم صعود وترقٍّ،كلما عبروا مقامًا إلى مقام رأوا نقص ما هم فيه فاستغفروا»[2].

لم يتركوا بابًا لنصرة قضيتهم إلا ولجوه، ولا رأوا عدوًّا لدعوتهم إلا واجهوه، ينصرون الحق وينصحون الخلق.

وفي مقابل ما ذُكر من أهمية هذا الوعي ونتائج إدراكه، فإن المبالغة في الاشتغال به وتضخيم أهميته، وتعظيم أثره في تغير الفتوى، والمغالاة في تناوله له سلبيات ومحاذير من أهمها ما يأتي:

» إغفال التأصيل الشرعي:

وذلك باعتبار أن الواقع هو الأصل تارة، وبإغفال المنهج الصحيح في

---

(١) «صفوة الآثار والمفاهيم»، للشيخ عبد الرحمن الدوسري (١/ ٧٢).
(٢) «صيد الخاطر»، لابن الجوزي (ص٣٥٥).

تلقي الأخبار والحكم على الرجال والأحداث تارة، وبفقدان الاعتدال والتوازن بين فقه النص والواقع تارة ثالثة، وباعتساف النص الشرعي وسوء تأويله وتطويعه ليتوافق مع الواقع تارة أخيرة.

» الافتتان بالبهرج والزيف:

سواء أكان هذا بشخصيات كافرة، أو بأفكار منحرفة، أو بطوائف ضالة، أو بأساليب ووسائل غير شرعية، وما يصحب ذلك من اختلال في ميزان الحب في الله والبغض في الله، وما قد يرافقه من التعويل على الأسباب والوسائل المادية، وإغفال الجوانب الإيمانية والمعنوية.

» الجنوح بالدعوة إلى الله:

وذلك بأن تخرج عن مسارها الأصيل، فتأخذ طابع الكفاح السياسي، أو الثورة الوطنية، أو المعارك الحزبية، مع غلبة الخطاب به، والاقتصار عليه، وذبول الجانب الاعتقادي التربوي العلمي الرصين، واضمحلال جانب التقرب إلى الله ﷻ بعبادة الدعوة وسيلة ومقصدًا، مما قد يتيح الفرصة للهجوم على الإسلام أو تشويه الدعوة.

» الانعزال عن الأمة بحجة تخلف العامة عن الوعي المطلوب:

فإدراك الواقع المطلوب هو التدبر في الأحداث والمواقف والمستجدات لينشأ عن ذلك عمل رشيد في حقل الدعوة؛ فإذا عاد الوعي بعزلة ومفارقة ومفاصلة بين الداعي وأمته، وبين الدعاة والعلماء وجمهرة المسلمين، فقد أتى هذا الوعي بنقيض مقصوده، وَكَرَّ الفرعُ على أصله بالإبطال، وذلك من أبطل الباطل وأخطر الأضرار. فلا بد من الاقتصاد في ذلك كله ولزوم منهج العدل والتوسط.

» التردي في النظرة التآمرية:

وذلك بتسويغ الهزائم والأخطاء والإلقاء باللائمة على الآخرين والأعداء، والسقوط في التقدير الموهوم لقوة الخصوم، والمبالغة في تقدير إمكاناتهم، والتهويل من شأنهم، مع ما يصحب ذلك من التهوين من إمكانات الأمة ومقدراتها، والتوهين لعزائم المخلصين.

ولعل جميع ما سبق إنما يأتي من جراء الغفلة عن قدر الله الغالب في نصرة هذا الدين، وضعف روح التوكل واليقين، والذهول عن سنن الله تعالى في تمكين المؤمنين وإهلاك الظالمين.

» الاستغراق في الوعي بالواقع:

بحيث يترتب على ذلك إغفال لطلب العلم الواجب، والتربية الإيمانية، والجوانب السلوكية، وضعف التقرب إلى الله تعالى بالعبادات القلبية والعملية، وهذا من أخطر السلبيات إن لم يكن أخطرها.

مذكرات وتعليقات

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

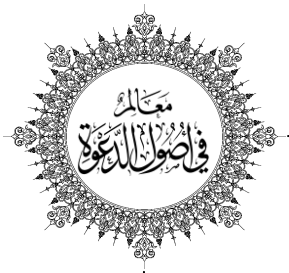

الأصل الثامن

8

الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم شعائر الدين، وهو -بعد التوحيد- الواجب الذي بعث الله به النبيين أجمعين، وهو سبيل صيانة الحرمات، وأمن المجتمعات. وبإقامته -على وجه الصواب- استحقت هذه الأمة أن تكون خير أمة أخرجت للناس، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠]، **وبإضاعته استحق بنو إسرائيل اللعنة على لسان الأنبياء، قال تعالى:** ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٨،٧٩].

وبأدائه على وجهه يخرج المكلف من عهدة التكليف، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤]، وتحصل الشهادة على الخلق، قال مالك: «وينبغي للناس أن يأمروا بطاعة الله، فإن عصوا كانوا شهودًا على من عصاه»(١).

فهو جهاد الدعوة الدائم، ودورها الذي لا قيام للدين بدونه، ولا اعتصام بحبل الله إلا على هداه، ولا تحقق لتمام الولاية بين المؤمنين إلا به، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١].

» وكثير من أرباب الدعوة -في واقعنا المعاصر -إلا من رحم الله- ناكلون عنه لشبهات أو لشهوات، فضيعوا الواجب وأغرقوا سفينة المجتمع، ومنهم عاملون به من غير فقه ولا تبصر فأساءوا من حيث أرادوا الإحسان، وأفسدوا من حيث أرادوا الإصلاح.

والعاملون الموفقون وسط بين المفرطين المتهاونين والعاملين غير المتفقهين، يعلمون الحق، ويرحمون الخلق؛ فهم خير الناس للناس.

 فأما الناكلون عنه فيقال لهم: ليس الاشتغال بهذه الفريضة ترقيعًا لبعض مظاهر الفساد، وتحصيلًا لمصالح جزئية لا قيمة لها، بل هو من أجلِّ مهام سيد النبيين ﷺ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ

(١) «الجامع»، لابن أبي زيد القيرواني (ص١٥٦).

﴿ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وفي المقابل لا يسبب القيام بهذه الشعيرة -بالضرورة- فتنة ومحنة، تعوق العمل الإسلامي، وتعجل بالمصادمة مع الأنظمة والحكومات، ولا يمكن أن يكون الإنكار -بعلم وحلم وصبر- سببًا لنفرة الناس من الداعية والدعوة.

مصلحة الداعي والدعوة معًا في اتباع القرآن وأوامره، والسنة وأحكامها.

ومصلحة الداعي والدعوة معًا في اتباع القرآن وأوامره، والسنة وأحكامها، ومن ذلك القيام بهذا الواجب المفروض، إذ الفلاح في الدنيا والآخرة مقرون بالقيام بهذا الواجب ولا بد، قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، وعطف الأمر والنهي على الدعوة إلى الخير هو من باب عطف الخاص على العام لإظهار فضله الخاص والتنويه بشرفه.

قال شيخ الإسلام: «الدعوة إلى الله تتضمن الأمر بكل ما أمر الله به، والنهي عن كل ما نهى الله عنه، وهذا هو الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر».

قال شيخ الإسلام: «الدعوة إلى الله تتضمن الأمر بكل ما أمر الله به، والنهي عن كل ما نهى الله عنه، وهذا هو الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر»[(١)]، وفي الحديث: **«سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»**[(٢)].

(١) «مجموع الفتاوي» (١٥/ ١٦١).

(٢) أخرجه: الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢١٥)، والطبراني في «الأوسط» (١/ ٢٨١)، و«الكبير» (٣/ ١٥١) من حديث علي رضي الله عنه، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وهو في «الصحيحة» برقم :(٣٧٤).

وأما المتسرِّعون فيقال لهم: إنه لا إنكار في موارد الاجتهاد، وإنه يجب الاقتصار في التغيير باليد والإنكار باللسان على قدر الحاجة من غير تجاوز، وينبغي ترك الإنكار والاحتساب، واستعمال الحكمة والصبر إذا أدى الإنكار إلى مفسدة أكبر وفتنة أشد.

» والأصل أن هذه الفريضة تجب على الكفاية، وتتعين في مواضع، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب على كل أحد بعينه؛ بل هو على الكفاية كما دل عليه القرآن، ولما كان الجهاد من تمام ذلك كان الجهاد -أيضًا- كذلك، فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه أثم كل قادر بحسب قدرته»(١).

» والأصل في هذه الفريضة أن تجب على الفور، إلا ما استثني، قال القرافي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العلماء: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الفور إجماعًا، فمن أمكنه أن يأمر بمعروف وجب عليه»(٢).

» وكل منكر موجود في الحال، ظاهر للمحتسب بغير تجسس، معلوم كونه منكرًا بغير اجتهاد، فالإنكار فيه واجب(٣)، وحسمه بما ينحسم به حتم لازم، بما لا يؤدي إلى مفسدة أكبر أو تفويت مصلحة أعظم(٤).

---

(١) «مجموع الفتاوي» (٢٨/ ١٢٦).
(٢) «الفروق» (٤/ ٢٥٧).
(٣) انظر: «إعلام الموقعين» (٣/ ٢٨٨)، و«الأحكام السلطانية»، للماوردي (ص٢٥٣).
(٤) انظر: «إعلام الموقعين» (٣/ ٤، ٥)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ١٦٤).

الوجوب في هذه الشعيرة مرتبط بتحقق القدرة وغلبة المصلحة.

» ومما ينبغي التأكيد عليه أن الوجوب في هذه الشعيرة مرتبط بتحقق القدرة وغلبة المصلحة، فيسقط بالعجز، لقوله ﷺ: «**مَن رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعفُ الإيمان**»(١).

كما يسقط بخوف الضرر المحقق، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ مرفوعًا: «**إنَّ الله ليسألُ العبدَ يومَ القيامةِ، حتى يقولَ: ما مَنعَكَ إذْ رأيتَ المنكر أن تُنكِرَهُ؟! فإذا لقَّنَ الله عبدًا حُجَّتَه قال: يا ربِّ! رَجَوتُكَ وفَرقْتُ من الناس**»(٢)، وقد اعتبر ذلك الفَرَق والخوف حجة يدلي بها العبد عند ربه.

» وتقدير المصالح والمفاسد العامة في هذا الباب والترجيح بينها عند التعارض -إنما هو بميزان الشريعة، وهو موكول إلى أهل العلم الذين يوثق بهم فقهًا ووعيًا، وديانة وورعًا.

 وإن تقديم الأهم على المهم، والتدرج في مراتب الإنكار، والنظر إلى المآلات في هذا الباب، وزوال المنكر بالكلية أو تخفيفه مطلوب شرعًا.

 وأما زواله مع زوال مثله من المعروف أو حصول مثله من المنكر فموضع اجتهاد ونظر.

(١) أخرجه: مسلم، كتاب الإيمان، باب «بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان»، (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه: ابن ماجة، كتاب الفتن، باب «قوله تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ..»، (٤٠١٧)، وأحمد في «المسند» (٣/ ٢٩) بلفظ « وثقتُ بكَ وفرقتُ مِن الناس» من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

وأما زوال المنكر وحصول ما هو أكبر منه أو فوات ما هو أكبر من المعروف فممنوع شرعًا.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات أو المستحبات، فالواجبات والمستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة؛ إذ بهذا بعثت الرسل، وأُنزلت الكتب، والله لا يحب الفساد،... وحيث كانت المفسدة للأمر والنهي أعظم من مصلحته، لم يكن مما أمر الله به، وإن كان قد تُرِك واجب، وفُعِل محرم؛ إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباد الله، وليس عليه هداهم»[1].

» وعند تزاحم المصالح والمفاسد في أمر ما أو تعارض المصالح أو تعارض المفاسد يطلب الترجيح، «فإذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما أوكدهما، لم يكن الآخر في هذه الحال واجبًا، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة، وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرمًا في الحقيقة، وإن سمي ذلك ترك واجب، وسمي هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر»[2].

إذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقدم أوكدهما، لم يكن الآخر في هذه الحال واجبًا، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب.

ومع أن هذا الواجب من فرائض الوقت المضاعة، ومن حرم الإسلام المهدرة فإن حاجة الدعوة اليوم إلى التأليف والمداراة، وتصحيح المفاهيم،

(١) «الاستقامة»، لابن تيمية (٢/ ٢٢١).
(٢) «مجموع الفتاوي» (٢٠/ ٥٧).

واستفاضة البلاغ، وإقامة الحجة، وبناء القاعدة الصلبة، وإنكار المنكرات العامة في الأمة بعلم وحلم أمسُّ من حاجتها إلى قصر الاحتساب على طائفة من المنكرات الجزئية، في الوقت الذي تندرس فيه معالم الدين الكلية، وتلتبس أصوله ومعاقده الكبرى.

فأما من حيث الوجوب فليشمل الإنكار كل منكر، وأما من حيث الاشتغال بالتغيير فكل منكر بحسبه، وكل منكر بقدره، و«التكليف الشرعي مشروط بالممكن من العلم والقدرة»[1].

ولا يخفى أن هذا الواجب يشمل التغيير بمراتبه الثلاث: باليد، واللسان، والقلب.

فأما مرتبة التغيير بالقلب فلا تسقط أبدًا، إذ هي الأصل لتغيير المنكر بمراتبه المختلفة، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل.

فأما مرتبة التغيير بالقلب فلا تسقط أبدًا؛ إذ هي الأصل لتغيير المنكر بمراتبه المختلفة، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل، وأهميتها ترجع إلى كونها سبب حفظ الإيمان في القلوب وصيانته أن يذوب، فهي فرقان ما بين المؤمن والمنافق.

وأما تغيير اللسان فلكل أحد في مواضع الإجماع والمسائل الجليات، ويختص أهل العلم بما وراء ذلك من مواطن الخلاف ودقائق المنكرات، ولا تسقط هذه الرتبة لهيبة أو لوم أو أذى خفيف، قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٧].

(١) «مجموع الفتاوي» (١٠/ ٣٤٤).

وأما التغيير والإنكار باليد فمشروط بحصول القدرة[1]، وألا يزول المنكر إلا باليد[2]، وألا يزول بيد فاعله لامتناعه ونحوه[3]، وألا يؤدي التغيير باليد إلى إثارة فتنة، وألا تقع بسببه مفسدة أو منكر أعظم[4]، وألا يترتب عليه من الضرر ما لا يحتمل في النفس أو الغير، وأن يقتصر في التغيير على القدر المحتاج إليه من غير زيادة، وتقدير ذلك عمليًّا من أمور الاجتهاد التي توكل لأهله دون غيرهم.

ويتعين التدرج في الإنكار، فمع تغيير القلب يبدأ بالتعريف، ثم الوعظ والتخويف، ثم التقريع والتعنيف، ثم التغيير باليد، على أن الغالب في زمن الاستضعاف وغربة الدين عند الاحتساب باليد استنفار العامة ضد الدعاة، والتشويش على قضية الدعوة برمتها، وإيجاد ذرائع البطش والتنكيل بالعاملين كافة، مع استنزاف كثير من الجهود وتبديد كثير من الطاقات في مواجهات على حساب التربية والتصفية والبلاغ، وهذا يؤكد أهمية الإحاطة بفقه النص وظروف الواقع وملابساته عند معالجة هذا الأمر الخطير.

وبقدر كثرة المنكرات وتعددها تكثر وسائل الإنكار والتغيير، وتتنوع مجالات وآليات النصح والتعبير، وذلك عبر مختلف وسائل الإعلام والتأثير، المكتوبة والمسموعة والمرئية.

بقدر كثرة المنكرات وتعددها تكثر وسائل الإنكار والتغيير، وتتنوع مجالات وآليات النصح والتعبير.

(١) «مختصر منهاج القاصدين»، لابن قدامة (ص١٢٦).
(٢) «الآداب الشرعية»، لابن مفلح (١/ ٢١٩).
(٣) «التشريع الجنائي»، لعبد القادر عودة (١/ ٥٠٦).
(٤) «الحسبة»، لابن تيمية (ص٢٥).

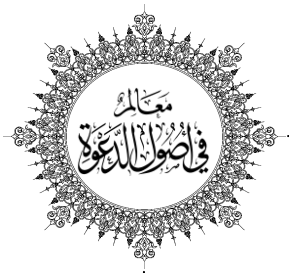

الأصل التاسع

9

الجـــهـــاد

الجـــهـــاد

إن الجهاد ذروة سنام الإسلام، وأصل عظيم من أصول الدعوة إلى الله تعالى، وبيعة ماضية في أعناق المؤمنين، وهو الصفقة الرابحة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١١١]، **وقال ﷺ: «تكفَّل الله لمَن جاهَد في سبيله -لا يُخرجُه إلا الجهادُ في سبيله وتصديقُ كَلمَتِهِ - بأن يدخله الجنّةَ، أو يرجِعَهُ إلى مَسْكَنه الذي خرج منه، مع ما نال من أجر، أو غَنِيمةٍ»** (١).

---

(١) أخرجه: البخاري، كتاب الخمس، باب «قول النبي ﷺ :أحلت لي الغنائم» (٣١٢٣)، و مسلم: كتاب الإمارة، باب «فضل الجهاد والخروج في سبيل الله»، (١٨٧٦) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والجهاد من أعظم وسائل إزالة العقبات وفتح الطريق أمام الدعوة والدعاة؛ فإن أعداء الإسلام وشريعته لن يتنازلوا -في الغالب- عما اغتصبوه من الأوطان والحقوق إلا إذا حملوا عليه حملًا، وإنه مهما قيل في تحقيق العمل السياسي لبعض المصالح، أو دفعه لبعض المفاسد، فإن طريق تحرير المقدسات والأوطان وإقامة سلطان الشريعة يمر -ولا بد- ببذل الأنفس والأموال في سبيل الله، ليس له غاية ينتهي إليها إلا إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة.

طريق تحرير المقدسات والأوطان وإقامة سلطان الشريعة يمر ـ ولا بد ـ ببـذل الأنفـس والأمـوال في سبيل الله.

ولا يخفى أن المعنى العام للجهاد يتناول استفراغ كل وسع وبذل كل جهد في نصرة هذا الدين، سواء أكان بالسيف والسنان أم بالحجة والبيان، وبالدعوة والإرشاد، وفي الحديث: «**أفضلُ الجهادِ كلمةُ عَدلٍ عند سُلطان جائر**»(١).

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة من وسائل دعوة المؤمنين، فإن الجهاد وسيلة من وسائل الدفع عن المؤمنين وطلب دعوة عموم الكفار والمشركين.

والجهاد بالنفس والمال ماضٍ إلى يوم القيامة، وإنكار وجوبه

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، باب «الأمر والنهي» (٤٣٤٤)، والترمذي: كتاب الفتن، بـاب «ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، (٢١٧٤) بلفظ: «إنَّ مِن أعظـم الجهـاد ..» من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ وعند النسائي: كتاب البيعة ، باب «فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر»، (٤٢٠٩) وأحمد في «المسند» (٤/ ٣١٥) وفيهمـا أنـه سـئل: «أي الجهـاد أفضل؟ **قال: كلمة حقٍّ عند سلطان جائر**» من حديث طارق بن شهاب ﷺ.

إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، وادعاء نسخه أو تخصيصه بجهاد الكلمة بدعة في الدين وضلالة، ونقص في العقل وسفاهة، وغفلة عن الواقع وجهالة.

والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال لدعوة الناس إلى الإسلام وإزالة جميع الحواجز والعوائق التي تحول دون الدخول فيه فرض كفاية على مجموع الأمة.

 والجهاد في سبيل الله -بالنفس والمال لدعوة الناس إلى الإسلام وإزالة جميع الحواجز والعوائق التي تحول دون الدخول فيه- فرض كفاية على مجموع الأمة، وقد يتعين في مواضع، منها: تعيين الإمام لشخص بعينه، وإذا استنفر الإمام أهل محلة، وعند حضور القتال إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان، ولاستنقاذ أسارى المسلمين من أيدي الكفار، ونحو ذلك.

 والخروج للجهاد في سبيل الله لطلب العدو يطلب فيه إذن الإمام -وجوبًا أو استحبابًا-، فلا يفتات عليه، قال ابن قدامة: «وأمر الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، ويلزم الرعية طاعته فيما يراه من ذلك»[1]، فإن خلا عنه زمان أو مكان، فيطلب إذن أهل الحل والعقد من كل صاحب منهج علمي سديد، وعمل مبارك رشيد، ومن ناصرهم من ذوي الشوكة والسلطان.

 وأما حين يتغلب عدو على بلد من بلاد الإسلام فيقتطعه ويستلبه، أو يقهر أهله على الخضوع لغير شرع الله، فعندها يتعين الدفع على كل قادر حاضر من أهل تلك الدار بإطلاق، ثم على من يليهم من المسلمين في الآفاق، حتى تحمى بيضة المسلمين وتحفظ حوزة الدين.

(١) «المغني»، لابن قدامة (١٠/ ٣٦٨).

» **وهدف الجهاد الأعظم**: هداية الناس للإيمان، وتعبيدهم للواحد الديَّان، وإخراجهم من عبودية العباد إلى عبادة رب العباد، وإخلاء العالم من الفساد، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣] وفي الحديث: «**بُعثتُ بين يَدي الساعةِ بالسيفِ حتى يُعبدَ الله وَحدهُ لا شريكَ لهُ**»(١).

هدف الجهاد الأعظم: هداية الناس للإيمان، وتعبيدهم للواحد الديّان، وإخراجهم من عبودية العباد إلى عبادة رب العباد، وإخلاء العالم من الفساد.

 ويدخل في هذا الهدف: رَدُّ اعتداء المعتدين، وإزالة الفتنة عن المدعوين، وإرهاب أعداء الدين، وتقوية دولة المسلمين، وفضح المنافقين، وتطهير الصف من رجسهم وإفكهم، مع تمحيص المؤمنين، وتربيتهم على الصبر والثبات، وغير ذلك من المنح الإلهية والنفحات الربانية.

 وتركُ الجهاد والنكوص عنه طريق الهلكة والخسران في الدنيا والآخرة، وسبب الذل والهوان، ومدعاة البلاء والعذاب، ومضيعة للمصالح العامة للأمة.

وترك الجهاد والنكوص عنه طريق الهلكة والخسران في الدنيا والآخرة، وسبب الذل والهوان، ومدعاة البلاء والعذاب، ومضيعة للمصالح العامة للأمة.

 ولما كان الجهاد في سبيل الله بهذه المنزلة؛ فإن السعي في ترشيده وتسديده ونصح أهله، وضبط أحكامه، وتقدير مصالحه، والفصل بين ثوابته التي لا يجوز التنازل عنها، وبين موارد الاجتهاد

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٥٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ٢١٢)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

التي لا مشاحة فيها، لهو أمر في غاية الأهمية والخطورة، وبخاصة إذا أضيف إلى ذلك النظر في واقع البلاد والعباد نصحًا للأمة، واستثمارًا لجهد أبنائها، وتحقيقًا للمصالح العامة ودفعًا للشرور والمفاسد العامة.

 وإذا كانت مشروعية جهاد من امتنع عن التزام الأحكام الواجبة والعمل بها مما اتفقت عليه كلمة السلف والأئمة، فإن استيفاء شرعية هذا العمل هو أول ضابط ينضبط به، فلا بد من استيفاء حكم الجواز من الشرع، وعدم الإضرار بالأمة، وحصر الصراع مع أعدائها لا غير، وحسن ترتيب الأولويات في ذلك، مع وضوح الراية المجاهدة وسلامتها من ولاءات جاهلية، وشعارات عميَّة، وقبل ذلك وبعده أن تتحقق المصلحة بإعزاز الدين، والدفع عن المستضعفين، وكف بأس الكافرين.

 وتترجح مصلحة المواجهة بأمور متعددة، منها: توقع الظفر بتحصيل أسبابه، وتوقع القبول من الأمة، وسلامة التوقيت زمانًا ومكانًا، والقدرة على توظيف الحدث في خدمة الإسلام، مع بذل الجهد واستفراغ الوسع في اتخاذ الأسباب المادية، وحساب النتائج في حدود وقدرة البشر، وهذا مسلَّم إلى أهل الحل والعقد من الأمة، مع التوكل على الله تعالى من قبل ومن بعد.

 وإذا أصبح الجهاد في سبيل الله -بصورته الشرعية المطلوبة- ليس في مقدور الأمة في وقت من الأوقات؛ فإن الموقف الصحيح هو المضي في السعي للوصول إليه وتحقيقه، وتربية الأمة والناشئة عليه وتأصيله، لا إلغاؤه من قاموس الدعوة بالكلية، وإسقاطه من منهج الإصلاح بالجملة، فإن وقع تخلف عن القيام به فإنما يكون بقدر العجز عنه، مع ضرورة الأخذ بلوازم

الوصول إليه، والإعداد له؛ لقوله ﷺ: «**مَن ماتَ ولم يَغزُ ولم يُحدِّثْ بهِ نَفسهُ ماتَ على شعبةٍ مِن نِفَاقٍ**»(١).

قال شيخ الإسلام: «.. كما يجب الاستعداد للجهاد بإعداد القوة ورباط الخيل في وقت سقوطه للعجز؛ فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»(٢).

وتحسن الاستفادة من مراحل تشريع الجهاد التي مَرَّ بها المسلمون الأوائل، ومن أحكام السياسة الشرعية التي يتحدد بناءً على رعايتها للمصلحة تفاوت الموقف من المشركين هدنة أو حربًا، فقد صالح النبي ﷺ قريشًا عشرًا وأخّر قتالهم، وقاتل غيرهم حيث لا هدنة، وترك قتال آخرين بغير هدنة، وفي كل ذلك النظر لمصلحة المسلمين وحسن التقدير لقدرتهم.

» وأخيرًا؛ فإن ما سبق لا يمنع من التأكيد على الحذر من استعجال مواجهة، أو استجابة لاستفزاز، أو الانطلاق من ردود أفعال قبل تهيئة مختلف الأسباب والقوى، وتحقيق الكفاية في العدة، وعلى رأسها: استقامة الجنود والقادة بحسب الطاقة، وتحققهم بالإيمان وثقتهم بنصر الله حتى يستحقوا تَنَزُّل النصر عليهم، مع الحذر من سوء التقدير لقوة العدو، أو الاغترار بكثرة العدد، ومراعاة أن النفوس يتغير ثباتها في حال المواجهة الفعلية والاضطرار عما قد يظهر منها حال السعة والأمن والاختيار، فهذا من آكد ما تنبغي العناية به في هذا الشأن؛ وذلك حتى لا ترجع هذه المواجهات بنقيض ما شُرِعَ الجهاد لتحقيقه من إعزاز الدين وتقوية شوكة المسلمين.

---

(١) أخرجه: مسلم، كتاب الإمارة، باب «ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو»، (١٩١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «مجموع الفتاوي» (٢٨/ ٢٥٩).

وإذا كانت المعارك بين أولياء الله وأعدائه سجالًا؛ لحكمة بالغة دلَّ عليها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤]، فإن الجولة الختامية والدولة النهائية لحزب الله المؤمنين، ولجند الله الغالبين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

» وآخرًا فإن هذا الوعد المنشود والنصر الموعود إنما يتنـزل على أمة مؤمنة مجاهدة، تربي أطفالها على ما تربى عليه معاذ بن عمرو بن الجموح رضي الله عنه[1]، وتربي شبابها على ما تربى عليه محمد بن القاسم الثقفي [2]، وتربي نساءها على ما تربت عليه الخنساء رضي الله عنها[3].

وهي تربية إيمانية عبادية: فمن فرط في حي على الصلاة، حقيق أن يخون حي على الجهاد.

وهي تربية إيمانية سلوكية: فمن سقط أمام المعاصي وفى الموبقات جدير أن يسقط أمام الأعداء وفى المواجهات.

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

(١) هو قاتل أبي جهل يوم بدر، وكان غلامًا يومها.
(٢) هو فاتح بلاد السند، وكان ابن سبع عشرة سنة.
(٣) هي تماضر بنت عمرو رضي الله عنها، احتسبت بنيها الأربعة يوم القادسية.

مذكرات وتعليقات

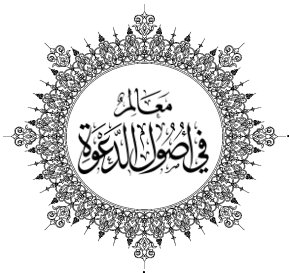

الأصل العاشر

10

البلاغ المبين

البلاغ المبين

إن استفراغ الوسع وبذل غاية الجهد في الدعوة والبلاغ المبين هو أبرز معالم وأصول دعوة النبيين والمرسلين، ومن بعدهم أرباب الدعوات والمصلحين.

» ولتتحقق غاية البلاغ المبين فإنه لم يكن للدعوة زمان ولا مكان محدد؛ بل الحياة بأسرها، ونبي الله نوح قد بين هذا المعنى المهم بقوله وفعله؛ فقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥]، **وقال:** ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩-١٠].

ونبينا ﷺ دعا قومه بمكة ليلًا[1]، وأخذ بَيعتي العقبة من الأنصار خفية ليلًا[2]، وعلَّم وبشَّر بعد منتصف الليل[3]، وخوَّف وذكَّر بعد ذهاب ثلثي الليل[4]، ووعظ عند الاستيقاظ من النوم في الليل[5].

وبعد صلاة الفجر وصلوات النهار، وفي نصف النهار وفي ذهابه وإيابه ومجالسه، وخطبه كافة.

وكما دعا نوح عليه السلام ولده قبيل غَرقه، فقد دعا نبينا ﷺ عمَّه عند موته[6]، والغلامَ اليهوديَّ حالَ احتضاره[7]، ودعا حال وفاة أبي سلمة رضي الله عنه[8] وبعُيد وفاة عثمان بن مظعون رضي الله عنه[9].

وعلى هذا مضى الصحابة رضي الله عنهم؛ فالصديق يفعل ذلك بُعيد وفاة نبيه ﷺ[10]، والفاروق رضي الله عنه يفعل مثل ذلك عند وفاة الصديق، ويندب الناس إلى جهاد أهل فارس من ليلته[11].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٥٠) عن أم الفضل وابن عباس رضي الله عنهم مرفوعًا . وقال الألباني -في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٣٢)-: إسناده حسن.
(٢) أخرجه البخاري (٣٨٩٢)، ومسلم (١٧٠٩) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعًا.
(٣) أخرجه البخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥). عن عليٍّ رضي الله عنه مرفوعًا.
(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٥٧)، وأحمد (٥/ ١٣٦)، مختصرًا عن أُبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعًا وقال الترمذي: حسن صحيح .
(٥) أخرجه البخاري (١١٢٦) عن أم سلمة رضي الله عنها مرفوعًا.
(٦) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) عن المسيب بن حزن رضي الله عنه مرفوعًا.
(٧) أخرجه البخاري (١٣٥٦) عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا.
(٨) أخرجه مسلم (٩٢٠) عن أم سلمة رضي الله عنها مرفوعًا .
(٩) أخرجه البخاري (١٢٤٣) من حديث أم العلاء رضي الله عنها مرفوعًا .
(١٠) أخرجه البخاري (٤٤٥٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا .
(١١) تاريخ الطبري (٣/ ٤٢٣)، الكامل (٢/ ٢٨٨).

وكما دعا الداعية إلى حين وفاة المدعو؛ فكذلك بقي الداعية يدعو إلى حين وفاته!

وكما دعا الداعية إلى حين وفاة المدعو؛ فكذلك بقي الداعية يدعو إلى حين وفاته!

وما وصايا أنبياء الله ومرسليه عند الموت إلا دعوة للخلق قبل الموت، وقد ذكر الله تعالى في كتابه وصية إبراهيم لبنيه ويعقوب عليهما السلام، وذكر النبي ﷺ في سنته وصية نوح عليه السلام لابنه[1].

وكانت وصيته ودعوته ﷺ حين موته: «**الصلاة الصلاة! وما ملكت أيمانكم**»[2].

وحُفِظَت وصايا أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم عند الوفاة دعوة إلى الله وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر.

فلمَّا حضرت الوفاةُ معاذًا رضي الله عنه بلَّغ حديثًا عن رسول الله ﷺ؛ فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**من شهد أن لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه دخل الجنة**»[3].

ومثل هذا الحديث منقولٌ عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه وقت احتضاره[4].

وبلَّغ أبو الدرداء رضي الله عنه عند موته حديثًا وأمر بالمحافظة على العشاء والفجر[5].

وعلى هذه السُّنة الماضية سار الدعاة المعلِّمون، والعلماء الدعاة الموفقون.

والدعوة تتأكد قبل لقاء الأعداء وإذا اصطفت الصفوف[6]، وقد دعا

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٦٩)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ١٩٢) والحكم في المستدرك (١/ ١١٢)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٥٦)، والإمام أحمد في مسنده (١/ ٧٨) عن علي رضي الله عنه مرفوعًا وصححه الألباني .

(٣) أخرجه ابن حبان (١/ ٤٢٩) من حديث جابر مرفوعًا. وصححه شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لصحيح ابن حبان.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩) عن عبادة بن الصامت مرفوعًا .

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٢٩٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٦٣) عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعًا .

(٦) أخرجه مسلم (١٧٣١) من حديث بريدة رضي الله عنه مرفوعًا.

المغيرة بن شعبة ﷺ جيش الفرس كما دعاهم ربعي بن عامر ﷺ [1]، ومثل هذا فعل معاذ ﷺ بجيش الروم[2].

وكذا فعل أبو عبيدة ﷺ حين التقى أمير جيش الروم قبيل موقعة اليرموك[3]، ومثله فعل عمرو بن العاص ﷺ قُبَيْل فتح مصر[4].

» وكما أن الدعوة ليس لها ميقات زماني فكذلك ليس لها ميقات مكاني:

ذلك أن أنبياء الله تعالى والمصلحين في كل زمان ومكان دعوا إلى الله تعالى في القصور وعند القبور، وفي الحضر والسفر، وفي المساجد والكنائس والكنس، وفي النوادي والمواسم والأسواق ومنازل الناس، وفي المدارس والمعاهد والسجون والمعتقلات! فمكان الدعوة كل الأرض والعالم بأسره.

ذلك أن أنبياء الله تعالى والمصلحين في كل زمان ومكان دعوا إلى الله تعالى في القصور وعند القبور، وفي الحضر والسفر، وفي المساجد والكنائس والكنس.

فأما في القصور وبلاط الفراعنة فقد علَّم موسى وهارون عليهما السلام كيف تكون الدعوة فيها بإذن الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[طه: ٤٤].

وقام جعفر بن أبي طالب ﷺ بالدعوة في بلاط النجاشي بالحبشة[5].

بالحبشة[5].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٠١).
(٢) تاريخ خليفة بن خياط (١٢٠).
(٣) البداية والنهاية (٩/ ٥٥٧) دار هجر.
(٤) البداية والنهاية (١٠/ ٩٨-٩٠).
(٥) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٠١) من حديث أم سلمة ابنة أبي أمية بن المغيرة ﷺ مرفوعًا. وحسنه شعيب الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

وقام بها عبادة بن الصامت ﷺ في بلاط المقوقس بمصر[١].

وقام بها النعمان بن مقرن والمغيرة بن زرارة في بلاط كسرى يزدجرد[٢].

وأما عند القبور فقد رأيناه ﷺ يمر عليها فيأمر أصحابه بالتعوُّذ بالله من عذاب النار ومن عذاب القبر ومن الفتن ما ظهر منها وما بطن ومن فتنة الدجال[٣]، ويحذر عند مروره بقبرين يُعَذَّبان في عدم الاستتار من البول ومن النميمة[٤]، ووعظ ﷺ أصحابه ببقيع الغرقد غير مرة[٥].

وكما دعا النبي ﷺ حضرًا دعا في السفر وحال الذهاب والإياب في الطريق، فيرشد عسكره بالانضمام إذا نزلوا في سفر[٦] ويعظهم في طريقه إلى حكمة، ويعلمهم[٧].

ولما اخترط رجل من أهل الشرك السيف على النبي ﷺ وهو نائم ما زاد على أن دعاه ليشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله!

ولما اخترط رجل من أهل الشرك السيف على النبي ﷺ وهو نائم ما زاد على أن دعاه ليشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله[٨]!

ولقد أنشأ السفر إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الله فردوا عليه بأسوأ

(٦) فتوح مصر وأخبارها (٧٥).

(١) البداية والنهاية (٩/ ٦٢٠-٦٢٨)، تاريخ الطبري (٣/ ٤٩٧-٥٠١) والفتوح (١/ ١٥٦-١٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٧) عن زيد بن ثابت ﷺ مرفوعًا.

(٣) أخرجه البخاري (٢١٨)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس ﷺ مرفوعًا.

(٤) مثل وعظه ﷺ الذي أخرجه البخاري (١٣٦٢) عن علي مرفوعًا.

(٥) أبو داود (٢٦٢٥)، السنن الكبرى للنسائي (٨٨٠٥).

(٦) أخرجه البخاري (٦٠)، ومسلم (٢٤١) عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا.

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٣٦٤) عن جابر ﷺ مرفوعًا.

الرد وأشده على نفسه ﷺ[1].

 وأرسل ﷺ سفراءه إلى الأمصار بالدعوة مبلِّغين ومعلِّمين؛ فتارة يرسل معاذًا، وأخرى يرسل عليًّا، وثالثة يرسل عاصم بن ثابت والقراء رضي الله عنهم أجمعين.

 وربما دعا إلى الله في الطريق، فمرة يلقى أبا جهل ببعض أزقة مكة فيقول: «**يا أبا الحكم هلم إلى الله وإلى رسوله أدعوك إلى الله!**»[2]، ويماشيه يومًا أبو ذر فيذكر له خطر الأئمة المضلين على أمته[3]، ويُرْدِفُهُ مرة أخرى خلفه فيعلّمه كيف يفعل في الظروف الاستثنائية الصعبة[4]، ويلقى معاذًا في الطريق فيعلمه حق الله على العباد وحق العباد على الله[5].

 ويقصد أسواق القوم فيدعوهم في ذي المجاز قائلًا لهم: «**يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»[6]. ومثل هذا القول يقوله ﷺ في عكاظ[7].

وفي سوق **مجنَّة** قال ﷺ: «**من يؤويني ومن ينصرني حتى أبلّغ رسالات ربي**

(٨) أخرجه الطبري في تاريخ الأمم والملوك (١/ ٥٥٤) عن محمد بن كعب القرطبي مرسلًا.

(١) أخرجه ابن إسحاق (١/ ١٩١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٥٥) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٤٥) عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا. وصحح الأرناؤوط الحديث لغيره في تحقيقه للمسند.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ١٤٩)، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٧٨) عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا. وصححه الأرناؤوط في تحقيق المسند على شرط مسلم.

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠) عن معاذ رضي الله عنه مرفوعًا.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٩٢) والحاكم في المستدرك (١/ ٦١) عن ربيعة بن عباد الديلي مرفوعًا. وصححه الأرناؤوط لغيره في تحقيق المسند.

(٦) أخرجه الإمام أحمد (١٥/ ٣٧) عن رجل في إمرة ابن الزبير مرفوعًا وصَحَّحَهُ الأرناؤوط في تحقيقه للمسند.

فله الجنة»[1].

ويغشى نبينا ﷺ يومًا سوق بني قينقاع فيدعو يهودًا قائلًا: «**يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثلُ ما أصاب قريشًا**»[2].

ودخل عليهم يومًا كنيسًا لهم في يوم عيدهم فكرهوا دخوله عليهم فقال لهم رسول الله ﷺ: «**يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلًا يشهدون: أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه**».

قال: فَأُسكتوا، ما أجابه منهم أحد.

فقال ﷺ: «**أبيتم فوالله إني لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا النبي المصطفى آمنتم أو كذَّبتم**».

فلما انصرف نادى رجل مِن خلفِهِ: كما أنت يا محمد.

قال: فأقبل ذلك الرجل، فقال: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك، ولا أفقه منك، ولا من أبيك قبلك، ولا من جدك قبل أبيك. قال: فإني أشهد بالله أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة. قالوا: كذبتَ. ثم رَدُّوا عليه قوله، وقالوا فيه شرًّا[3].

(٧) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٢٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٨١) عن جابر مرفوعًا . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٠١) والبيهقي في السنن (٩/ ١٨٣) عن ابن عباس مرفوعًا . وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود، برقم (٦٤٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٢٥)، وابن حبان (١٦/ ١١٨)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٤٦٩) عن عوف بن مالك الأشجعي مرفوعًا . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

ولقد قام النبي ﷺ على الصفا فجهر بالدعوة وصرخ بها بين ظهرانيهم[1].

وأتاهم في منازلهم منزلًا منزلًا، ودرَّس في بيوتهم خفية، وعلَّم بدار الأرقم سرًّا، وأسلم فيها خلق كثير.

وكان ﷺ يأتي الناس في منازلهم بمِنى في مواسم الحج فيقول: «**يا أيها الناس! إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا**»[2].

وكان ﷺ يأتي الناس في منازلهم بمِنى في مواسم الحج، فيقول: «يا أيها الناس! إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا»

ربما جمع النساء في بيت فدعاهن وعلمهن وبايعهن[3]، وربما جاء إليهن في يوم العيد فوعظهن وذكرهن وأمرهن بالصدقة[4].

وربما وعظهن في بيت إحداهن[5].

وكما شهدت المنتديات والأماكن العامة والمفتوحة الدعوة إلى الله فقد شهدت أقبية السجون وغرف المعتقلات الدعوة إلى الله أيضًا.

وكما شهدت المنتديات والأماكن العامة والمفتوحة الدعوة إلى الله فقد شهدت أقبية السجون وغرف المعتقلات الدعوة إلى الله أيضًا.

وذلك تاريخ يبدأ من دعوة نبي الله يوسف عليه السلام ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ

---

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٧٠) ومسلم (٢٠٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا .

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٩٢) عن ربيعة بن عباد الديلي مرفوعًا . وصححه الأرناؤوط في تحقيقه للمسند .

(٢) أخرجه البخاري (١٠١)، ومسلم (٢٦٣٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا .

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٤) من حديث أبي سعيد الخدر ي رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (١٠١)، ومسلم (٢٦٣٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٣٩-٤٠].

وقد دعا النبي ﷺ سيد اليمامة ثمامة بن أثال وهو في الأَسْر بمسجده ﷺ ثلاثًا فأسلم بعد أن أطلقه[١].

وأما قيام المسلمين بالدعوة في السجون قديمًا وحديثًا فحدّثْ عنه ولا حرج!

» ومِنَ استفراغ الوسع في التبليغ والبيان والدعوة أن يقوم بها كل مسلم ومسلمة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٨].ولقوله ﷺ: «**بلِّغوا عني ولو آية**»[٢].

ومِنَ استفراغ الوُسع في التبليغ والبيان والدعوة: أن يقوم بها كل مسلم ومسلمة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٨].

ولقوله ﷺ -لأبي ذر رضي الله عنه- بعد إسلامه-: «**ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري**»[٣]. وفي رواية: «**فهل أنت مبلِّغٌ عني قومك؟ عسى الله أن ينفعهم بك، ويأجرك فيهم**»[٤]، فأسلم نصف القوم بدعوة أبي ذر، فلما قدم النبي ﷺ المدينة أسلم نصفهم الباقي! فقال ﷺ: «**غفار غفر الله لها، وأسلم**

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢)، ومسلم (١٧٦٤)، مطولًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا .
(٣) أخرجه البخاري (٣٨٦١)، ومسلم (٢٤٧٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا .
(٤) أخرجه مسلم (٢٤٧٣)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا .

سالمها الله»[1].

▯ وبالدعوة إلى الله أمر ﷺ وفد بني عبد القيس[2] ووفد بني ليث[3].

وبدخول الصديق رضي الله عنه إلى الإسلام شرع يدعو إلى الله؛ فأسلم ببركة دعوته عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم أجمعين، وكلهم من العشرة المبشرين[4].

▯ وبمجرد إسلام سعد بن معاذ رضي الله عنه دعا قومه، فقال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال الراوي: فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة[5].

▯ وهكذا فعل كلٌّ من ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه[6] وعروة بن مسعود الثقفي الثقفي رضي الله عنه[7]؛ بل وكذا فعل الفريق من الجن الذين أسلموا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

▯ وعلى هذا المنوال نسجت الأمة المحمدية جيلًا فجيلاً، حتى فتح الله بالدعوة من البلاد، ودخل فيها من العباد أكثر مما فتح بالجهاد!!

» على أن الدعوة إلى الأصول

الدعوة إلى الأصول والكليات والمسائل الواضحات تتيسر لكل مسلم، وكذا الدعوة الخاصة الفردية لا يُعفى منها كل مؤمن، وكذا صاحب كل ولاية في ولايته.

(٥) أخرجه مسلم (٢٤٧٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا.
(٦) أخرجه البخاري (٨٧)، ومسلم (١٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.
(٧) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١٣٠٥).
(١) حديث العشرة المبشرين بالجنة حديث منها ما أخرجه أبو داود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٤٨) عن سعيد بن زيد مرفوعًا . وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٠١٠).
(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٨٣٤).
(٣) أخرجه البخاري (٦٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٣٥)، وجوامع السيرة (٢٥٥-٢٥٦).

والكليات والمسائل الواضحات تتيسر لكل مسلم، وكذا الدعوة الخاصة الفردية لا يُعفى منها كل مؤمن، وكذا صاحب كل ولاية في ولايته؛ كالمرأة في بيتها، والرجل في بيته، ومهمة هذه الدعوة هي تغيير السلوك بالدرجة الأولى.

وأما ما يتعلق بدعوة العامة، والدعوة الجماعية، والدعوة إلى دقائق مسائل الإيمان والأحكام فهذه مسلَّمة إلى أهلها من العلماء، وكلٌّ بحسبه في هذا الأمر، ومهمة هذه الدعوة -بالدرجة الأولى- هي تغيير الأفكار والتصورات.

» ومن استفراغ الجهد في البلاغ: دعوة أمتي الإجابة والدعوة على حد سواء، فقد دعا النبي ﷺ المشركين الجاهلين الغافلين، ودعا أهل الكتابين؛ فأتى ﷺ اليهود في بيت كبيرهم[1]. واستدعاهم ليدعوهم إلى الإسلام[2]، وأمر عليًّا رضي الله عنه بدعوة يهود خيبر قبل قتالهم[3]، وأرسل كتابه إلى حَبْر تيماء من اليهود[4]، ودعا عدي بن حاتم رضي الله عنه من النصارى[5]، وكتب إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام[6]، ودعا أكيدر دومة

ومن استفراغ الجهد في البلاغ: دعوة أمتي الإجابة والدعوة على حد سواء، فقد دعا النبي ﷺ المشركين الجاهلين الغافلين، ودعا أهل الكتابين.

(١) أخرجه البخاري (٣٩١١) عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا .
(٢) أخرجه البخاري (٣٩١١) عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا.
(٣) أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد مرفوعًا.
(٤) لم أجده مسندًا.
(٥) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٥٧) عن عدي بن حاتم مرفوعًا وقال الأرناؤوط في تحقيقه للمسند: بعضه صحيح وهذا إسناد حسن من أجل أبي عبيدة.
(٦) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)، عن أبي سفيان رضي الله عنه مرفوعًا.

إلى الإسلام [1]، ودعا المنافقين وانطلق إلى رأسهم ليدعوه إلى الله[2]، ودعا في مجلس واحد أخلاطًا من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود[3]، ودعا المجوس الذين كانوا بالبحرين[4].

وكتب ﷺ إلى كل جبار يدعوه إلى الله تعالى؛ فعن أنس رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الإسلام، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ»[5].

وبدهي بعد هذا أن يكون ﷺ قد دعا قرابته وأهل مكة بطنًا بطنًا، وبيتًا بيتًا، وفردًا فردًا، وأنه لم يستثن فئة ولا طائفة إلا وقد دعاها إلى الله سواء الرجال والنساء والأطفال، وسواء في ذلك العبيد والأحرار، والعامة والخاصة، والأغنياء والفقراء، والأعراب وأهل المدن.

واستعمل ﷺ في سبيل الدعوة القول منفردًا بسَوق القصص حينًا[6]، وبضرب الأمثال حينًا آخر[7]، وبالترغيب والترهيب أحيانًا أخرى[8].

---

(٧) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ١٣٣) عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: أن رسول الله ﷺ كتب على كسرى وقيصر وأكيدر دومة يدعوهم إلى الله عز وجل، وقد أخرجه مسلم (١٧٧٤) بدون ذِكْر أكيدر دومة.

(٨) أخرجه البخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨) عن أسامة بن زيد مرفوعًا .

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨)، عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٧٤) عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا.

(٤) أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) عن ابن عمر مرفوعًا .

(٥) مثل ما أخرج البخاري (٣٥٣٤)، ومسلم (٢٢٨٧) عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا: «مَثَلي ومثل الأنبياء كرجل بنى دارًا ...».

(٦) أخرجه البخاري (٦٤١١)، ومسلم (٢٨٢١) عن ابن مسعود مرفوعًا.

وجمع ﷺ بين القول والفعل[1]، كما جمع بين القول والإشارة، وبين القول والرسم التوضيحي[2]، ودعا بالفعل وحده[3]، كما دعا بالإشارة وحدها[4]، وأرسل الكتب[5]، وبعث الرسل[6]، واستعمل المال تأليفًا للقلوب[7]، ولم يألُ في ذلك جهدًا ولم يدخر وسعًا.

وقد نهى النبي ﷺ عن كل منكر شاع في عصره، وأمر بكل معروف، ودعا أمته إلى التوحيد، وأمرها بطاعته، وبذل في ذلك مهجة نفسه، وعصارة عمره، وأفنى في هذا السبيل قوته، حتى صلى -بأبي هو وأمي- آخر عمره جالسًا، وذلك بعد أن حطمه الناس! فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه والدعاة إلى دينه وإلى سبيله إلى يوم الدين.

وقد نهى النبي ﷺ عن كل منكر شاع في عصره، وأمر بكل معروف، ودعا أمته إلى التوحيد، وأمرها بطاعته، وبذل في ذلك مهجة نفسه، وعصارة عمره.

وعلى الدعوة الراشدة اليوم: أن توجِّهَ خطابها إلى الناس كافة، وإلى العامة مثل الخاصة، وإلى إنكار منكرات العصر قبل المنكرات التاريخية، وأن يجاهد الدعاة في ميدان واقعي لا في ميدان خيالي.

وعلى الدعوة الراشدة اليوم: أن توجِّهَ خطابها إلى الناس كافة، وإلى العامة مثل الخاصة، وإلى إنكار منكرات العصر قبل المنكرات التاريخية، وأن يجاهد الدعاة في ميدان واقعي لا في ميدان خيالي.

(٧) أخرجه البخاري (٩١٩) عن ابن عمر مرفوعًا.
(٨) أخرجه البخاري (١٠٤٠) عن أبي بكرة مرفوعًا.
(٩) أخرجه البخاري (٧٢٩٨)، ومسلم (٢٠٩١) عن ابن عمر مرفوعًا.
(١) أخرجه البخاري (٢٧١٠)، ومسلم (١٥٥٨) عن كعب بن مالك مرفوعًا عن ابن عمر مرفوعًا.
(٢) مثل بعثه كتابا إلى هرقل عظيم الروم، أخرجه البخاري (٦٢٦٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.
(٣) بَعَثَ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، ودحية الكلبي وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس بمصر، وعمرو بن العاص إلى ملك عمان، وسليط العامري إلى اليمامة إلى هوذة الحنفي، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي ملك البحرين.
(٤) أخرجه مسلم (٢٣١٣) عن صفوان بن أمية مرفوعًا .

توجِّهَ خطابها إلى الناس كافة، وإلى العامة مثل الخاصة، وإلى إنكار منكرات العصر قبل المنكرات التاريخية، وأن يجاهد الدعاة في ميدان واقعي، لا في ميدان خيالي.

 ولا شك أن القيام بالبلاغ المبين هو أكبر ضمان لصون المجتمعات من الانحرافات والفتن التي تعصف بالصالح والطالح، وتأتي على الأخضر واليابس.

 وأخيرًا؛ فإن الأمة المحمدية اليوم هي أكثر وعيًا، وأحسن فهمًا من عقود مضت، والدعوة الراشدة هي التي سيكتب قبولها في هذه الأمةِ النَّقَّادَةِ، وليست هذه فقط خاصية خاصتها، بل إن عامتها وإن كانوا لا يملكون خطابًا منمقًا إلا أنهم يمتلكون مشاعر صادقة، وحدسًا لا يكذب!!

مذكرات وتعليقات

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

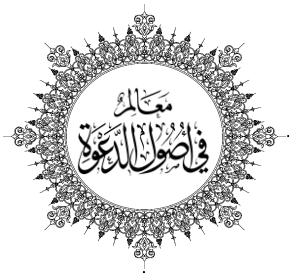

الأصل الحادي عشر

11

الحكمة

الحكمة

إن الحكمة في الدعوة إلى الله أكبر من أن تكون أسلوبًا، أو أن تعد وسيلة تحقق مقصودًا، بل هي علم وعمل، وخبرة وتجربة، وفطرة وموهبة، وروح تسري لبلوغ غاية تهدي، وكل كلام وافق الحق فهو حكمة قولية، وكل قول صائب رتب فعلاً صحيحًا فهو حكمة فعلية، وكل فعل صحيح أنشأ واقعًا مستقيمًا ومجتمعًا صالحًا فهو حكمة واقعية.

» والحكمة في الدعوة إلى الله مأمور بها، قال الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فهي علم يُحصَّل وتكليف ينفَّذ؛ ولذا قال عنها ابن عباس رضي الله عنهما إنها : «معرفة القرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله وتفسيره»(١)، فهي فقه في الدين، وفي الحديث: «**مَن يُرد الله به خيرًا يُفقهه في الدِّين**»(٢) وهي وظيفة الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩] وهي – أيضًا- محض فضل الله ومنَّته ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ومن أوتي الخير فقد وجب عليه الشكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ١٢] ولأجل هذا وهبها الله تعالى لقلب سيد الأنبياء وإمام الدعاة ﷺ كما حدَّث عن نفسه، فقال: «**فُرِجَ سقفُ بيتي وأنا بمكةَ فنزلَ جبريلُ** عليه السلام، **ففَرَجَ صدري، ثُم غَسلَهُ من ماء زمزم، ثم جاء بِطَسْتٍ من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه في صدري ثم أطبقه**» (٣) ولعظيم حاجة العلماء والدعاة إليها سألها النبي ﷺ لحبر الأمة، فقال: «**اللَّهُمَّ علمه الحكمة**»(٤) فعاش رضي الله عنه مغبوطًا ومغتبطًا بدعائه ﷺ وبثنائه عليه، واندراجه في قوله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**»(٥).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٧١).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) أخرجه: البخاري، كتاب الصلاة، باب «كيف فرضت الصلاة»، (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب «الإسراء برسول الله ﷺ»، (١٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه .
(٤) أخرجه: البخاري، كتاب مناقب الصحابة، باب «ذكر ابن عباس رضي الله عنهما»، (٣٧٥٦).
(٥) أخرجه: البخاري، كتاب العلم، باب «الاغتباط في العلم والحكمة»، (٧٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب «فضل من يقوم بالقرآن ..»، (٨١٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

والحكمة -على تعدد معانيها وتنوع التعبيرات في مراميها- يجمعها قول مجاهد ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان[1].

وهي عند التحقيق «فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي»[2].

فالحكمة الدعوية علم نافع، وعمل صالح، واتباع كامل، وتجربة واسعة، تكوِّن حاسة تهدي إلى الصواب والسداد، وتصل بالدعوة إلى غاية البلاغ والتمكين والرشاد.

فالحكمة الدعوية علم نافع، وعمل صالح، واتباع كامل، وتجربة واسعة، تكوِّن حاسة تهدي إلى الصواب والسداد، وتصل بالدعوة إلى غاية البلاغ والتمكين والرشاد.

وإذا كانت الحكمة مطلوبٌ تعلُّمها والعمل بها لكل داعية في كل زمان ومكان؛ فإن حاجة الدعوة اليوم للحكمة أشدُّ، وضرورتها للدعاة أَلزمُ، حيث اختلطت المفاهيم العلمية، واضطربت المواقف العملية، فلا شك أن المجتمعات التي يواجهها الدعاة اليوم تموج بتناقضات عديدة، وتعمل فيها آفات كثيرة، أفضت إلى كثير من الالتباس في المفاهيم والأفكار، وأدت إلى شيء من الاندراس في الشرائع والأحكام، وأعان على ذلك فتن الشهوات المردية وظلمات الشبهات المضلة، والتي تترى في وسائل الإعلام وآلاته المدمرة، ومع

(١) «التفسير القيم»، لابن القيم (ص٢٢٦).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٧٩).

خفوت نور الربانية في الصدور، وضعف سطوع شمس الوحي في العقول، اختلط مفهوم مصلحة الدعوة الحزبية بمصلحة الدين الكلية، والتبست المداراة الشرعية بالمداهنة غير المرضية، كما وقعت الحيرة لدى بعض الطوائف الدعوية في مسألة السرية والجهرية، والتبس فقه مرحلة الاستضعاف بفقه واقع الاستخلاف، وحدث الخلط بين الإسرار والتخفي من جهة، وبين السكوت عن الحق وقول الباطل من جهة أخرى، ودقَّ الفارق في حسِّ البعض بين القوة المأمور بتحصيلها، وبين العنف والغلظة المأمور بنفيها، وعميت السبل لدى آخَرين في التفريق بين النصيحة والتشهير، وبين الإنصاف والإجحاف، وبين العدل والجور!!

وأقدم آخرون -تهورًا- في مواطن التأني ظنًّا أنها شجاعة، وأحجم غيرهم -توانيًا وكسلًا- في مواطن الإقدام ظنًّا أنها حكمة، وكلٌّ يدعي وصلًا بليلى!!

 والأمر كما قال ابن القيم: «والله تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه، فالرجل الكامل من له إرث كامل من أبيه، ونصف الرجل له نصف ميراث، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى»[1]، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة:٢٦٩].

» ولا يتهيأ الدعاة لتحصيل الحكمة العلمية والعملية إلا بتخليةٍ عن الآفات وبحليةٍ من الصفات تبعث الحكمة وتباركها وتزكيها، و من تلك الصفات:

 الإخلاص والتجرد: ومن أخطر ما يهدد الداعية ودعوته: أن يدعو

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٧٩).

لنفسه وجماعته بدلًا من أن يدعو إلى ربه ومعبوده، ومن آفاته -أيضًا-: أن يرى عزَّ نفسه بالعلم والدعوة، ونقص غيره بالجهل والتقصير، ومن آفاته: التحاسد والتغاير الذي يكون بين الدعاة مما لا ينتسب إلى التنافس في الخيرات بسبب، ولا يَمُتُّ إلى الصدق بصلة، وإذا حمل هذا التحاسد على الوقوع في الأعراض واتهام النيات فلا شك -إذن- أن اتباع الهوى هو السبب الذي أهاج ذلك، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

العلم والفهم: والعلم والحكمة قرينان لا يفترقان، قال تعالى: ﴿ **وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ [الأنبياء: ٧٤] وقال ﷻ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] والحكم هنا بمعنى الحكمة، فالداعية العامل بغير علم كالسائر على غير هدى، وفي مأثور الحكمة: من تمسك بغير أصل زلَّ، ومن سلك طريقًا بغير دليل ضلَّ.

وقد ذهب بعض ا لمفسرين إلى تفسير الحكمة بالعلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى العمل النافع[1]، وعليه؛ فإن الجهل ضد للعلم والحكمة معًا، فلا يجتمع جهل وحكمة، كما لا يفترق علم وحكمة، وللفهم دوره في تحصيل الحكمة، فهو فهم يقيم منهج الاستدلال على وجهه الصحيح، فتنتفي الظاهرية السطحية، وتجمع أطراف الأدلة، ويعمل بكل دليل مع مراعاة سياقه وسباقه ولحاقه.

التجربة والخبرة: فالتجربة اختبار للأمور وسبرٌ لها؛ «**فلا حكيم إلا ذو تجربة**»[2] وقال الحسن -في قوله تعالى-: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ

(١) «تفسير المنار»، للعلامة محمد رشيد رضا (٣/ ٧٣).

(٢) جزء من حديث، أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب «ما جاء في التجارب»، (٢٠٣٣) وقال: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وأحمد في «المسند» (٣/ ٨، ٩٠)، وأخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم من كلام معاوية رضي الله عنهما، وقد رماه بعضهم بالوضع، وتعقب ذلك

كلما عرك الداعية الأمور وخالط الناس استعجم عوده وكمل علمه واستقام عمله.

﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[القصص:١٤] «أي: بلغ أربعين سنة»[١] ،وكلما عرك الداعية الأمور وخالط الناس استعجم عوده وكمل علمه واستقام عمله، ولأجل هذا المعنى قال موسى عليه السلام -لنبينا ﷺ ليلة المعراج-: «**إنَّ أُمَّتكَ لا تستطيعُ خمسينَ صلاةً كلَّ يومٍ، وإنِّي واللهِ قد جَرَّبتُ الناسَ قبلَكَ، وعالَجتُ بني إسرائيلَ أَشدَّ المُعالجةِ؛ فارْجِعْ إلى رَبِّكَ فاسألَهُ التَّخفِيفَ لأُمَّتِكَ ..**»[٢]

ومما تكتمل به عقول الرجال: الاستشارة، وقد قيل: الرجل الكامل هو من له عقل ويستشير، ونصفُ رجلٍ هو من له عقل ولا يستشير، ولا شيء هو من لا عقل له ولا يستشير.

وَمِنَ الرِّجَالِ إِذَا اسْتَوَتْ أَخْلَاقُهُمْ ... مَنْ يُسْتَشَارُ إِذَا اسْتُشِيرَ فَيُطْرِقُ

حَتَّى يَحِلَّ بِكُلِّ وَادٍ قَلْبُهُ ... فَيَرَى وَيَعْرِفُ مَا يَقُوْلُ فَيَنْطِقُ

الحلم والرفق: من أخصِّ ما يتحلَّى به الداعية: الحلم، والرفق، وكظم الغيظ؛ فيعفو عمن ظلمه، ويصل من قطعه، ويحسن إلى من أساء إليه، وفي الحديث: «**ليس الشديد بالصُّرَعة، وإنما الشديدُ الذي يملكُ نفسهُ عند الغضبِ**»[٣]، وعباد الرحمن والداعية الحليم أشبه بالأنبياء، قال ﷻ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] وقال ﷻ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

بأنه ضعيف لا موضوع. انظر: «فيض القدير» للمناوي (٦/ ٤٢٤). والظاهر أنه «ثابت» من كلام معاوية رضي الله عنهما موقوفًا -كما علق البخاري رحمه الله- «ضعيف» مرفوعًا.

(١) تفسير ابن كثير(٢/ ٤٧٣) .

(٢) أخرجه: البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب «المعراج»، (٣٨٨٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: البخاري، كتاب الأدب، باب «الحذر من الغضب»، (٦١١٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب «فضل من يملك نفسه عند الغضب ..» (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما الفظ الغليظ العنيف فأبعدُ الناسِ عن الألفة والائتلاف، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وسيِّد الدعاة ﷺ لم يكن يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا.

الأناة والتثبت: الأناة ضد العجلة، وهي مظهر من مظاهر الصبر وسبيل قاصد لاقتباس الحكمة، وهي التصرف الحكيم بين العجلة والتباطؤ، وقد قال الله تعالى -آمرًا بالتثبت-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات:٦] وفي قراءة فتثبتوا، وقد قال النبي ﷺ -لبعض أصحابه-: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة**»(١)، وقد نهى الله تعالى الداعية الأول ﷺ عن العجلة، فقال: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] وفي الحديث قوله ﷺ: «**السَّمْتُ الحَسَنُ، والتُّؤَدَةُ**(٢)**، والاقتصادُ جزء من أربعةٍ وعشرين جزءًا مِن النُّبوة**»(٣).

وما أحسنَ قولَ القائل:

وكلُّ أناةٍ في المواطِنِ سؤدَدٌ ... ولا كأناةٍ مِن قديرٍ محكمِ
ومَنْ يَتَبينْ أنَّ للصفحِ موضعًا ... مِنَ السيف يَصفَحْ عَن كثيرٍ ويحلمِ
وما الرأيُ إلا بعدَ طولِ تَثَبُّتٍ ... ولا الحزْمُ إلا بعدَ طولِ تَلَوُّمِ

إلا أن العجلة في طاعة الله لا تُذَمُّ، قال تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٤] فيستثنى مِن ذَمِّ العجلة ما لا شبهة في خيريته، قال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ

(١) أخرجه: مسلم، كتاب الإيمان، باب «الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ ..»، (١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) «التؤدة»: الرفق والتأني.
(٣) أخرجه: الترمذي، كتاب البر والصلة، باب «ما جاء التأني والعجلة» (٢٠١٠) من حديث عبد الله بن سرجس المزني رضي الله عنه.

﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وفي الحديث: «**التُّؤدةُ في كلِّ شيءٍ خير إلَّا في عَملِ الآخرةِ**»[١].

ولما كانت الحكمة أصلًا علميًّا وعمليًّا منه تنطلق الدعوة، وبه يتحلَّى الدعاة؛ فإنه يحسن في هذا المقام الإشارة إلى معالم الحكمة ومظاهرها في الدعوة إلى الله تعالى، ومن ذلك:

» إحكام فقه الأولويات العلمية والعملية:

لا مريةَ أن اختلالاتٍ عديدةً قد وقعت لدى بعض الدعاة في مراتب الأعمال الشرعية العلمية والعملية على حد سواء، كما أن الضرورات في الساحة الدعوية تلجئ الدعاة إلى التدرج في الدعوة والتلطف مع أمة الإجابة والدعوة، وهذا يقتضي فقهًا يبدأ بالأهم وينتهي بالمهم، ويضع كل تكليف شرعي في ساحة الدعوة موضعه الصحيح فيقدم ما حقه التقديم ويؤخر ما حقه التأخير، ولا يتم هذا إلا بعد فقه بأحكام الشريعة ومراتب الأعمال، وفقه للضوابط والقواعد الحاكمة والتي يقوم عليها بناء الترجيح عند تزاحم الأعمال، وإدراك للواقع والظروف التي تعمل فيها الدعوة، وهذا كله من الحكمة الدعوية، والتي قد يعبر عنها في هذا المجال بفقه الأولويات، والذي قد يعرف بأنه: «العلم بالأحكام الشرعية التي لها حق التقديم بناءً على العلم بمراتبها، وبالواقع الذي تعمل فيه»[٢].

---

(١) أخرجه: أبو داود، كتاب الأدب، باب « في الرفق»، (٤٨١٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٣٢)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ١٩٤) من طريق مصعب بن سعد عن أبيه ﷺ.

(٢) يراجع: «فقه الأولويات، دراسة في الضوابط»، لمحمد الوكيلي (ص١٦).

وفي حديث معاذ ﷺ حين بعثه النبي ﷺ إلى اليمن معلِّمًا تنبيهٌ على فقه الأولويات، وفي نزول الوحي متدرجًا بيان لسنة المرحلية في التغيير والإصلاح، فالفرائض قبل النوافل، والعقيدة قبل ما عداها من الفرائض، والانتهاء عن المحرمات قبل المكروهات، والكليات قبل الجزئيات، والتيسير أولى من التعسير، وأعمال القلوب أولى بالعناية من أعمال الجوارح، والنوافل تتفاضل بحسب الأحوال والأشخاص، والعناية تتجه في هذا الزمان إلى فقه الوحدة والائتلاف، وما كان أكثر مصلحة فهو أولى بالتقديم، ومصلحة الضروري مقدمة على مصلحة الحاجي، وما كان أكثر مفسدة فهو أولى بالدرء، وما تعدت منفعته أولى مما كان قاصرًا، والإحسان إلى الأبرار أولى من الإحسان إلى الفجار، كل ذلك حكمة علمية في تأصيلها، عملية في تطبيقها، ولبسطها والاستدلال لها مجال آخَر.

» مراعاة التفاوت في أصناف المدعوين:

ذلك أن المدعوين أصناف متفاوتة، فمنهم: الملحد الجاهل، وفيهم الوثني المعاند، ومنهم: أصحاب الكتب السابقة، ومنهم: المسلمون المقصِّرون، والمنافقون الجاحدون، ولكلٍّ ما يلائمه من الخطاب، وما يصلح له من المداخل؛ إذ القلوب وحشية، فمن تَأَلَّفها أقبلت عليه، ومن حكمة الدعوة: مقابلة هذا التباين بكثيرٍ من سعة الصدور، وإحاطة بطبائع النفوس، وتفهم لسعة الإدراك العقلي للمخاطبين بالدعوة، وتلك حكمة متلقاة عن الدعاة الأُوَل ﷺ، ومن فقه ابن مسعود ﷺ وحكمته: «ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[1]، ومن معالم حكمته ﷺ: «إن

(١) «مقدمة صحيح مسلم» (١/ ١٠).

للقلوب شهوةً وإقبالًا، وفترةً وإدبارًا، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها»، وقد كان يعظ فيذكر كلَّ خميس، فقال له رجل: وددتُ أنك ذكرتنا كلَّ يوم، فقال: «أما إنه يمنعُني من ذلك أني أكرهُ أن أُمِلَّكُم، وإني أتخوَّلكم بالموعظةِ كما كان رسول الله ﷺ يتخوَّلُنا مخافة السَّآمَةِ علينا»[1]

» اختيار أفضل الوسائل والأساليب الدعوية:

إن إعمال الحكمة في اختيار الوسائل الدعوية من الأهمية بمكان، حيث تحتاج الدعوات إلى كل وسيلة فعَّالة أيًّا كان مصدرها؛ شريطة ألا يهدم مشروعيتها نصٌّ من كتاب الله أو سنة رسولهﷺ؛ لأن للوسائل أحكامَ الغايات والمقاصد، كما يتأكد الاهتمام بتجريد وتنقية كل وسيلة يختلط فيها الحلال بضده، وكذا في الكف عن الوسائل المختلف في حكمها، إلا عند الضرورات وما ينزل منزلتها من الحاجات الملحَّة.

يتأكد الاهتمام بتجريد وتنقية كل وسيلة يختلط فيها الحلال بضده، وكذا في الكف عن الوسائل المختلف في حكمها، إلا عند الضرورات وما ينزل منزلتها من الحاجات الملحَّة.

على أنه يلزم في كل وسيلة تؤدَّى الدعوة من خلالها: أن تكون على مستوى المهمة التي أُنيطت بها، كما تمس الحاجة إلى التأكيد على جودة الأساليب التي تستعمل بها تلك الوسائل، فإذا كان القول وسيلة من وسائل الدعوة، فإن الأسلوب الحسن في القول هو باب من الحكمة عظيم، قال تعالى:

---

(١) أخرجه: البخاري، كتاب العلم، باب «من جعل لأهل العلم أيامًا معلومة»، (٧٠)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب «الاقتصاد في الموعظة» (٢٨٢١).

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] وهؤلاء الناس يدخل فيهم أهل الشرك، وعبدة الأوثان، وكفرة أهل الكتاب؛ فكيف بأهل التوحيد والإسلام؟!!

وقد أمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام بإلانة القول مع فرعون، فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤] وما ألين ما خاطب به إبراهيم عليه السلام أباه وهو يدعوه إلى الله[1]، ومن حسن القول: التعريض دون المواجهة، والإشارة قبل العبارة، والتلميح دون التصريح؛ فإن هذا يستميل القلوب، ويحفظ حرمة النفوس، ويعين على القبول، فإن كان لا بد من قول صريح فهو النصيحة لا الفضيحة؛ إذ الداعية المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعيِّر ومن وعظ أخاه سرًّا فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه!

وكما أمر الداعية بحسن القول ورقته فقد أمر بحسن العمل وهدايته.

وكما أُمر الداعية بحسن القول ورقته فقد أُمر بحسن العمل وهدايته، والمداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفضُ الجناح للناس، ولينُ الكلام، وتركُ الإغلاظ، وذلك من أقوى أسباب الألفة، فالمداراة رفق بالجاهل عند التعليم، وبالفاسق عند الإنكار، وعليه فإن المداراة للخلق حكمة ومداهنتهم فتنة، والفارق بينهما أن الأولى معها إنكار رفيق، والثانية بخلاف ذلك.

ومن أساليب الحكماء إقالة العثرات والغض عن الأخطاء، متى لاح أنه طريق للإصلاح.

ومن أساليب الحكماء: إقالةُ العثرات، والغضُّ عن الأخطاء متى لاح أنه طريق

(١) تراجع الآيات (٤٢-٤٧) من سورة مريم.

للإصلاح، وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة ﷺ الدرس والقدوة، والتعليم والأسوة، والأسلوب العاطفي الوجداني يجدي في تذكير البعض، وبعض آخر لا بد من خطابه بالعقل والمنطق، وربما مازج الداعية بين الأسلوبين في سياق واحد، بناء على حُسْنِ نظرِهِ في المخاطب وحاله، قربًا وبعدًا، علمًا وجهلًا، إيمانًا وكفرًا، والله الهادي إلى سواء السبيل.

مذكرات وتعليقات

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

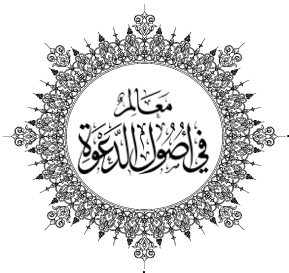

الأصل الثاني عشر

12

الشمول والتكامل

الشمول والتكامل

إن الدعوة إلى الإسلام يجب أن تكون شاملة لقضاياه كافة، والبلاغ به يجب أن يكون للناس عامة.

والشمول في الدعوة إلى اللّه مستمَدٌّ من شمولية تشريعات الإسلام لأنظمة الحياة الإنسانية جميعًا، ومن أمره تعالى بالدخول في ذلك كافة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة:٢٠٨]، **كما أنها تستمد من شمولية العبادة لكل ما يحبه اللّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، قال تعالى:** ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣].

وهي كذلك مستمَدَّةٌ من كون كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩] يُحتاج إليه من الأمر والنهي، والحلال والحرام، والحدود والأحكام، فلم تَبْقَ في الدين قاعدة يُحتاج إليها في الضروريات والحاجيات والتكميليات إلا وقد بُيِّنت غايةَ البيان.

فالإسلام «دين شامل، يشتمل على مصالح العباد في المعاش والمعاد، ويشتمل كل ما يحتاج إليه الناس في أمر دينهم...

فهو عبادة وقيادة، يكون عابدًا، ويكون قائدًا للجيش.

عبادة وحكم، يكون مصليًا صائمًا، ويكون حاكمًا بشرع الله، منفذًا لأحكامه.

عبادة وجهاد، يدعو إلى الله، ويجاهد في سبيل الله من خرج عن دين الله.

مصحف وسيف، يتأمل القرآن ويتدبره، وينفذ أحكامه بالقوة، ولو بالسيف إذا دعت الحاجة.

سياسة واجتماع، فهو يدعو إلى الأخلاق الفاضلة، والأخوة الإيمانية، والجمع بين المسلمين والتأليف بينهم»[1].

وأما تعليل وجوب كون الدعوة شاملة، وكون البلاغ عامًّا؛ فلأن الله تعالى خاطب الداعية الأول ﷺ فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[المائدة:٦٧]. فقوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يشمل جميع ما أوحي إليه من الكتاب والسنة بلا نقصان، والوحي يتناول

(١) «مجموع فتاوي»، ابن باز رحمه الله (١/ ١٤٧).

مناحي الحياة كافة، والدعوة وسيلة تقرير الدين في واقع الناس.

على أن قضايا الدعوة ومسائلها تتجزأ؛ فلا يجب على كل داعية الدعوة إلى كل القضايا ابتداءً؛ بل يجب الكل على مجموع الدعاة، وهو تحقيق معنى التكامل.

قضايا الدعوة ومسائلها تتجزأ؛ فلا يجب على كل داعية الدعوة إلى كل القضايا ابتداءً؛ بل يجب الكل على مجموع الدعاة، وهو تحقيق معنى التكامل.

فالمقصود بهذا الشمول والتكامل أن يجتمع في الدعوة إلى الله تعالى -على تعدد تخصصات أربابها وتنوع اهتماماتهم- الدعوة إلى الإسلام بشرائعه وتنظيماته كافة، عقيدة وشريعة، وديناً ودولة.

وبالضرورة فإن هذا لا يمنع أن يبذل جميع الدعاة مساعيهم كل بحسب طاقته في جمع أطراف الإسلام عند الدعوة إليه، ولكن كما تقدم فإن الدعوة تتجزأ وتتقسط، والأصل فيها أنها من فروض الكفايات، فما قصَّر فيه فرد قام به آخَرُ، وما عجز عنه فريق نهض به فريق آخَرَ، لكن المتعين على الأمة بمجموع دعاتها أفرادًا وجماعات أن يأخذ كل جزء من الإسلام حقه من الدعوة والبيان، فالأمة تتكامل في أداء فروض الكفايات ولا يأثم الكافة إلا بترخص الجميع، فيمارس كل فريق اختياراته واجتهاداته بفقه ورشد مع استشعار أن الباقين يحملون ما عجز عنه ويكفونه مؤنته.

» ومن الشمول في الدعوة: دعوة أمتي الإجابة والدعوة:

فيجب أن يتجه الخطاب إلى الجاهلين الغافلين، كما يتجه إلى العصاة المفرِّطين، وإلى المبتدعة المخالفين، كما يشمل الكفار الأصليين.

ومن الشمول: دعوة طبقات الأمة جميعًا: الرجال والنساء، الشباب والأطفال، المثقفون والعامة.

» ومن الشمول في الدعوة: الجمع بين واجبي الاتباع والاجتماع.

ويقصد به تحقيق الشمول العلمي والعملي، بحيث يتحقق الجمع بين فقه الاتباع وضرورة الاجتماع، فينبغي التزام الجماعة بمعناها العلمي، المتمثل في اتباع الكتاب والسنة على رسم منهاج النبوة، وبمعناها العضوي المتمثل في الدعوة إلى اجتماع طوائفها حول الأئمة الشرعيين، أو حول أهل الحل والعقد فيها عند خلو الزمان من الأئمة، واشتراك الكل في الدفع عن الإسلام وأهله، وحماية بيضته وإقامة دولته.

» ومن الشمول في الدعوة: الشمول في الوسائل.

ألا تقتصر الوسائل على دعوة جماعية عامة، ولا تنحصر في دعوة فردية خاصة، ولا تختصر في مؤسسات خيرية أو هيئات اجتماعية وإغاثية؛ بل كل وسيلة تحقق الأهداف، ولا تعارض الشرع، فهي مطلوبة.

شمولية الدعوة نظريًّا لا يعني بالضرورة شمولية السعي والحركة عمليًّا، في كل اتجاه وعلى كل صعيد.

ومما يجدر التنبيهُ عليه: أن شمولية الدعوة نظريًّا لا يعني -بالضرورة- شمولية السعي والحركة عمليًّا، في كل اتجاه، وعلى كل صعيد؛ إذ مَرَدُّ ذلك إلى القدرة والمصلحة، وهما يختلفان زمانًا ومكانًا وأحوالًا، أما الاعتقاد النظري فلا سلطان لأحد عليه، فيجب أن يكون شاملًا وجازمًا في جميع الأحوال.

فالشمول في الاستيعاب والفهم والعلم، والتكامل والتوازن والتدرج في العمل والممارسة ولا بد.

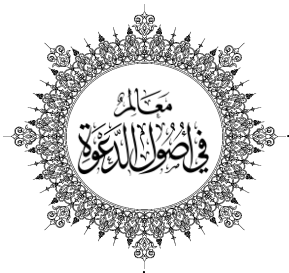

الأصل الثالث عشر

13

الوحدة والائتلاف

الوحدة والائتلاف

الأصل اللاحب أن المسلمين أمة واحدة، تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، كما يسعى بذمتهم أدناهم، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، وأساس وحدة الأمة الإسلام، وتحكيم شريعته، على منهج أهل السنة والجماعة وأصولهم القويمة.

وعليه؛ فإن الدعوة إلى الله على منهج أهل السنة والجماعة، تعني -أول ما تعني-: الاعتصام بالسنة والمحافظة على الجماعة؛ فإن «الجماعة رحمة، والفرقة عذاب»[1] قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٧٨) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، وهو في «الصحيحة» رقم: (٦٦٧).

فتحقيقُ الوحدة والائتلاف ونبذُ الفرقة والاختلاف بين المسلمين عامة وطوائف العاملين خاصة من أهم مقاصد الدين وقواعده الكلية، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة:٥٥].

وكما أن البدعة مقرونة بالفرقة، فإن السنة مقرونة بالجماعة.

وكما أن البدعة مقرونة بالفُرقة؛ فإن السنة مقرونة بالجماعة، ولا شك أن أعظم سبب للاجتماع هو جمع الدين علمًا وعملًا، ونتيجته العز والتمكين في الدنيا، والنجاة من التفرق، والفوز والفلاح في الآخرة، والنجاة من النار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «جماع الدين: تأليف القلوب واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة»(١).

وليس المقصود بالوحدة والائتلاف ذوبان الطوائف في طائفة مخصوصة من الدعاة، ولا انحلال جماعات الدعوة لحساب جماعة بعينها من الجماعات.

وليس المقصود بالوحدة والائتلاف ذوبان الطوائف في طائفة مخصوصة من الدعاة، ولا انحلال جماعات الدعوة لحساب جماعة بعينها من الجماعات، وإنما الاعتصام بأصول أهل السنة والجماعة عامة، والاجتماع على صحة المعتقد خاصة، والالتقاء على ما سبق من أصول الدعوة

(١) «مجموع الفتاوي» (٢٨/ ٥١).

وتبنيها علميًّا وعمليًّا، والاجتماع على هذا الانتماء المبارك أنجح من الاجتماع على راية حزبية، أو دعوة إقليمية، وكل ذلك من شأنه أن يؤلِّفَ القلوب، ويوجِّهَ الجهود، ويجمع كلمة أهل الحل والعقد في الأمة، ويزول معه الانغلاق على الذات، وترقق به الحواجز الموهومة، وتقطع به السبيل على قالة السوء ودعاة الفتنة، وتصحح النظرة إلى التعدد في ساحة العمل الإسلامي الذي هو في مجمله تعدد تنوع وتخصص، ينبغي أن تنتفع به الأمة، فتحيا به الفرائض كافة، ويتجدد أمر الدين، وليس تعدد تعارض وتنازع، تشقى به الأمة، فتتفرق به الصفوف، وتتقطع به العلائق.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات:١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

ومن نافلة القول: أن الاشتراك والتعاون بين آحاد وطوائف الدعاة في الأعمال العلمية النظرية، والبرامج الدعوية العملية، من شأنه أن يحقق الوحدة والتوافق والائتلاف، الذي لا بديل عنه إلا الفرقة والتنازع والاختلاف، ومن ثم الفشل والفناء.

إن الخلاف حقيقة حتمية قدرية، وتضييقه بتجنب أسبابه، والخروج منه احتياطًا للدين غاية شرعية.

ثم إن الخلاف حقيقة حتمية قدرية، وتضييقه بتجنب أسبابه، والخروج منه - احتياطًا للدين- غاية شرعية.

» والموقف من المخالف يتفاوت بتنوع الخلاف:

فصاحب خلاف التنوع محسن مثاب لإصابته الحق.

وصاحب خلاف التضاد فيما كان من الظنيات خلافه سائغ، ولا إنكار

عليه ولا تشنيع؛ بل التحاور والتناصح، والتماس المعاذير.

وصاحب خلاف التضاد غير السائغ يُنْكَر عليه خلافه، بعد أن تُزَالَ عنه شبهاته، ويعامل بما يستحق أمثاله.

فالاجتماع على ما اتفق أهل السنة عليه، والتعاذر والتغافر فيما اختلفوا فيه؛ الفقهيات والعقديات في ذلك سواء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد اتفق الصحابة في مسائلَ تنازعوا فيها على إقرار كل فريق للفريق الآخَر على العمل باجتهادهم، كمسائلَ في العبادات والمناكح والمواريث والعطاء والسياسة وغير ذلك... وتنازعوا في مسائل علمية اعتقادية، كسماع الميت صوتَ الحي، وتعذيب الميت ببكاء أهله، ورؤية النبي ﷺ ربَّه قبل الموت، مع بقاء الجماعة والألفة، وهذه المسائل منها: ما أحد القولين خطأ قطعًا، ومنها: ما المصيب في نفس الأمر واحد عند الجمهور أتباع السلف، والآخَر مؤدٍّ لما وجب عليه بحسب قوة إدراكه»[1].

» والعدل والإنصاف أهم آداب الخلاف.

قال ابن القيم: «والله يحب الإنصاف؛ بل هو أفضل حلية تحلى بها الرجل، خصوصًا من نصب نفسه حكمًا بين الأقوال والمذاهب، وقد قال -تعالى- لرسوله ﷺ-: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]»[2].

ومن قوادح العدل والإنصاف ونواقض الوحدة والائتلاف: العصبية لشيخ أو إمام، أو حزب أو رأي اجتهادي، أو مذهب فقهي.

ومن قوادح العدل والإنصاف ونواقض الوحدة والائتلاف: العصبية لشيخ أو إمام، أو حزب أو رأي اجتهادي،

(١) «مجموع الفتاوي» (١٩/ ١٢٢، ١٢٣).
(٢) «إعلام الموقعين» (٣/ ٩٤).

أو مذهب فقهي.

ومن قوادح الاجتماع والألفة: تقديم مصلحة الجماعة الحزبية على مصلحة الأمة المحمدية، وهو ترجيح جانب الانتماء (الوسيلة) على جانب الانتماء (الغاية).

وأعجب من هذا وأنكى: تقديم مصالح الداعية الفرد على الطائفة والأمة معًا!.

وعلى طوائف العاملين للإسلام وآحادهم -على تعدد مسالكهم العملية واختياراتهم العلمية- أن يحفظوا فيما بينهم الأخوة والعصمة، وأن يحققوا الفائدة من هذا التعدد، فيحصل التخصص الذي يجوِّد الأداء، ويستوعب أكبر قدر من الأمة، وتجتنب معه الإبادة الجماعية، ويفتح المجال لأكثر من تجربة عملية تثري ساحة الدعوة إلى الله، وتشيع جوًّا من المنافسة المحمودة في الخيرات، مع اجتماع الكلمة في القضايا الكبرى والملمات، وتوحيد الصفوف في المواقف العملية والمهمات.

إن أمانة الدعوة إلى الله ومسئولية تعبيد الناس لربهم مـرورًا -بتحكيم الشريعة وإقـامة دولة القرآن والسنة في هذا العصر- لتقتضي -حتمًا- التكامل والتراحم والتعاون؛ بدلًا من التفرق والتباغض والتشاحن، قال ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة:٢].

وإن أمانة الدعوة إلى الإسلام لتستلزم الحضَّ على الجماعة والوحدة والائتلاف، والنهي عن الفرقة والاختلاف، وفي مجالات الدعوة الفسيحة وآفاقها الرحبة من السعة والتنوع ما يستوعب كل اجتهاد، ويستثمر كل طاقة.

والأصل: أن طوائف الدعاة وآحادهم المنضوين تحت راية السنة على اختلاف مناهجهم ومسالكهم العلمية والعملية بمثابة التخصصات الطبية

المتنوعة المحتاج إليها جميعًا لا يغني تخصص عما سواه، ولا تتحقق عافية الأمة بالاقتصار على واحد دون ما عداه.

ولا بأس أن يقول كل داعية لصاحبه -إذا اختلفا عمليًّا- كما قال الإمام مالك لصاحبه عبد الله العمري بعد أن حثَّه على الاقتصار على باب بعينه من أبواب الخير، فكتب إليه قائلًا: «إن الله قسَّم الأعمال كما قسَّم الأرزاق، فرُبَّ رجل فُتح له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الجهاد، فنشْر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيتُ بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر»[1].

وقد يُفتح على الإنسان في العمل المفضول ما لم يفتح عليه في العمل الفاضل، فيكون فاضلًا في حقه عندئذٍ، قال شيخ الإسلام: «وأما ما سألتَ عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض، فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصَّل لكل أحد»[2].

مع قلة الإمكانيات وكثرة الواجبات وغلبة المنكرات، وتسلّط الأعداء وتسيُّد المنافقين يتعين التعاون والتقارب بين الدعاة أفرادًا وجماعات وهيئات.

ومع قلة الإمكانيات وكثرة الواجبات وغلبة المنكرات، وتسلُّط الأعداء وتسيُّد المنافقين يتعين التعاون والتقارب بين الدعاة أفرادًا وجماعاتٍ وهيئاتٍ.

وما أجمل أن يقول كل داعية لصاحبه -إذا اختلفا علميًّا- كما قال الإمام الشافعي ليونس الصدفي، وقد تناظرا في مسألة فلم يتفقا، فلما التقيا أخذ بيده وقال:

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ١١٤).
(٢) «مجموع الفتاوي» (١٠/ ٦٦٠)، (٢٤/ ٢٤٦).

«يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة»[1].

وأخيرًا فغير خافٍ على ذي عينين أن دعوى الوحدة والائتلاف نطق بها أفراد وجماعات، وانبرى لها آحاد وطوائف، تأصيلًا وتنظيرًا، ولعله لا يخفى -أيضًا- أن جُلَّ هؤلاء -إلا من رحم الله- تخالف أعمالهم أقوالهم في هذا الأمر، وممارساتهم نظرياتهم!

ومن النصح الواجب أن يقال: إن كل داعية موقوف ومسئول بين يدي الله ﷻ عن هذه الأمانة الشرعية، والوظيفة النبوية، ثم هو من بعد مسئول أمام المؤمنين في هذا الجيل؛ بل وما يأتي من أجيال!

وهذا يدعو تارة أخرى إلى التأكيد على اعتماد أصل هذه الأصول وهو الإخلاص لله تعالى، والصدق في القول والعمل، وتحقيق الربانية، والتجرد لاختيار ما هو الأنفع للبلاد والعباد.

قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[التوبة:١٠٥].

مذكرات وتعليقات

.....

.....

.....

.....

.....

.....

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٦).

مذكرات وتعليقات

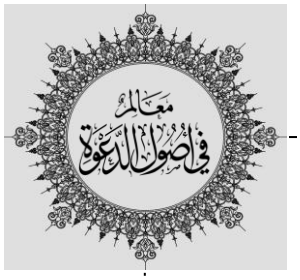

الأصل الرابع عشر

14

العالمية

العالمية

إن عالمية الدعوة في الإسلام وإلى الإسلام مستمَدَّة - في الأصل- من عالمية هذا الدين عقيدة وشريعة، ومن عالمية كتابه، ومن عالمية بعثته ﷺ إلى العالمين، ومن عالمية حاجة البشرية إليه.

فأما عالمية عقيدته الصافية؛ فلأنها عقيدة جميع الأنبياء والمرسلين على تنوع شرائعهم وتباين أزمانهم وأقوامهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وأما عالمية شريعته المطهرة؛ فلأنها الشريعة المهيمنة الخاتمة التي نزلت من رب الناس وإله الناس إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ:٢٨].

» **وأما عالمية كتابه الكريم**؛ فلأنه آخِر الكتب الإلهية نزولًا، والناسخ لما سبقه منها، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف:١٠٤].

» **وأما عالمية رسوله** ﷺ؛ فلقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال ﷺ -في بيان فضله على سائر الأنبياء-: «**... وأُرسِلتُ إلى الخلقِ كافَّةً ..**»(١).

فكان حقًّا على كل داعٍ أن يتأسى بالداعية الأول ﷺ، حيث خرج بدعوته إلى خارج حدود الجزيرة، وكاتَبَ الملوك والقياصرة والأكاسرة يدعوهم بدعاية الإسلام؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

▯ ولقد تجددت العالمية في دعوة الصحابة ﷺ من بعد نبيهم ﷺ، حيث قام خطيبهم ربعي بن عامر ﷺ؛ ليعلن هذا المبدأ في الدعوة، فقال: «ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»(٢).

▯ ومما يؤكد معنى العالمية -شرعًا- إقامة آصرة الاجتماع على أصل التوحيد دون غيره من الأواصر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٢) انظر: «تاريخ الطبري» (٢/ ٤٠١).

ومما يثبته في الواقع بشارة النبي ﷺ بدخول الناس في دين الله أفواجًا، وببلوغ دعوة الإسلام ما بلغ الليل والنهار، وبامتداد ملك أمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، مما وقع بالفعل أو ينتظر وقوعه.

فيجب على كل مسلم أن يحمل همَّ الدعوة إلى هذا الحق، وأن ينطوي على الرغبة الصادقة في هداية كل الخلق.

فيجب على كل مسلم أن يحمل همَّ الدعوة إلى هذا الحق، وأن ينطوي على الرغبة الصادقة في هداية كل الخلق، وألا يفرق في بذل الخير بين أحد من الناس لاعتبارات عرقية أو إقليمية أو مذهبية.

ومما ينبغي التأكيد عليه في هذا المقام -بعد التنبيه إلى أن الدعوة محلها الأرض كل الأرض، وأن المدعوين هم الناس كافة، وأن موضوعها دين الإسلام الخاتم الذي فيه سعادة البشر جميعًا-: أن يعلم أن مما يثبت عالمية الدعوة إلى الإسلام تلك السعة في شريعته، التي تؤكد على رفع الحرج ونفي الجناح، وجلب التيسير عند المشقة، وتغير الفتوى بتغير معطياتها زمانًا ومكانًا، وهذا الذي على مثله يؤمن الناس بالإسلام؛ فتتحقق مصالحهم في العاجل والآجل، ليس فقط بحفظ الضرورات، وإنما برعاية الحاجيات والتحسينيات -أيضًا- مع تشريع الرخص المبيحة للمحرمات عند وجود المشقات البالغة أو الضرورات.

ومن أظهر ما يدل على العالمية في الدعوة ويرشحها: عالمية الصراع بين الإسلام وملل الكفر قاطبة، وتحالف قوى الباطل على الإسلام وأهله من كانوا وحيث كانوا، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

[البقرة:١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة:٣٦].

ومن أسفٍ أن تفتقد كثير من الدعوات الصادقة -في عملها اليوم- سمة العالمية، في الوقت الذي ترتفع فيه رايات ومرجعيات دولية عالمية لليهود والنصارى من جهة، وللرافضة الباطنية من جهة أخرى.

» ومن عالمية الدعوة: تجاوز حدود المكان.

فإن الدعوة العالمية هي التي تتجاوز حدود المكان فلا تستغرق داخل مكان لا تخرج عنه، ولا تغفل عن الإفادة من أماكن أخرى، ولا تتقاعد عن نصرة قضايا المسلمين في مواطنها المختلفة، ذلك أن أهدافها عالمية، وهي متوزعة على العالم بحسب أوضاعه المختلفة.

» ومن عالمية الدعوة: رعاية الثوابت والسعة في موارد الاجتهاد.

والدعوة العالمية هي التي ترعى الثوابت والمحكمات في كل ميدان، وتتعامل مع قضايا ومسائل الاجتهاد بحسب معطياتها ومقدماتها، فلا تقف على رأي لا يتغير في هذا الباب أو ذاك، ولا تجمد على أسلوب أو وسيلة لا ترى سواها، كما لا تتبنى مذهبًا فقهيًّا ناسب مكان نشأة الدعوة، ثم ترفعه إلى منـزلة المحكمات والقطعيات في كل مسائله وفروعه، فتخلط بين الموروث الفقهي والأصول العقدية، أو بين الثابت والمتغير في الشريعة الإسلامية.

» ومن عالمية الدعوة: عالمية الوسائل.

فتستفيد الدعوة من الوسائل والإمكانيات المتاحة في كل مكان، بما

يحقق الأهداف ويكثر المنجزات، فمكان للجهود العلمية، وآخَر للإعلامية، وثالث للسياسية، ورابع للاقتصادية.. وهكذا.

» ومن عالمية الدعوة: عالمية الروابط والمؤسسات.

فينبغي السعي في إيجاد هيئات ومؤسسات مرجعية عالمية، تخدم قضايا الدعوة إلى الإسلام، وتدعم المسلمين علميًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وإعلاميًّا، كما تعمل على توحيد كيانات أهل السنة والجماعة، والتقريب بينها، والتنسيق بين مواقفها، ونصرة قضاياها المشتركة، مع التأكيد على أنه لا يمكن في الواقع أن تستقل طائفة مهما عظمت إمكاناتها بالتغيير الشامل، أو تنفرد بالإصلاح الكامل.

مذكرات وتعليقات

مذكرات وتعليقات

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

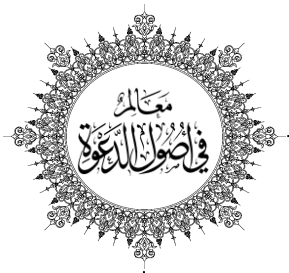

الأصل الخامس عشر

15

الـواقـعـيـة

الـواقـعـيـة

إن الواقعية قبل أن تكون أصلاً للدعوة ومنطلقًا للدعاة هي خصيصة من خصائص الإسلام في تشريعاته وأنظمته؛ بل وفي نظرته للإنسان، فنظرة الإسلام للإنسان تقوم على هذا المبدأ، فلا إغراق في المثالية، ولا سقوط في المادية، ولا إنكار لحاجاته وغرائزه، ولا إفراط في المتع واللذائذ الشهوانية.

وعادة الإسلام أن يحدد مستوى أدنى لا ينـزل الإنسان عنه، ويفتح له أفقًا أرحب يتنافس الناس فيه، يظهر هذا في الفرائض والنوافل على تنوعها وتعددها، كما يظهر فيما نهي عنه نهيًا جازمًا كالمحرمات، وما لم يكن كذلك كالمكروهات.

ومن واقعيته –أيضًا- تشريع الرخص حال الاضطرار أو الاحتياج؛ ليتحقق التيسير ويندفع الحرج، وتشريع التوبة من الذنوب؛ لأن ابن آدم خطاء، وتشريع الكفارات لبعض المخالفات والأخطاء؛ التماسًا للسلامة من تبعتها، وإشاعة للخير والبر والإحسان في الأمة.

وتظهر الواقعية في تشريعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراتبه ومراحله وأحواله من حيث الوجوب والاستحباب والجواز والحرمة.

كما تلمح الواقعية –أيضًا- في اعتبار الزمان والمكان في التربية والتعليم، والأمر والنهي والفتوى؛ إذ كل ذلك قد يتغير في أسلوبه ووسيلته وفي عرضه وطريقة تناوله، تقديمًا وتأخيرًا، وتصريحًا وتلميحًا، باختلاف الزمان والمكان.

والموقف العملي من أهل البدع والمخالفين يتفاوت باعتبار الواقع زمانًا ومكانًا، وباعتبار البدع غِلظًا وخفةً، وباعتبار أهل الحق قوةً وضعفًا.

» ومن الواقعية في الدعوة: إدراك السنن الربانية في الدعوة والإصلاح.

وتلمس تلك السنن في سير ودعوات الأنبياء -عليهم صلوات الله وسلامه- قال سبحانه: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [آل عمران:١٣٧]، وقال جل وعلا: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]، فلا غنى بالدعوة والدعاة عن إدراك أن العاقبة للمتقين، وأن الابتلاء سنة جارية للمؤمنين، وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأن التدافع بين الحق والباطل لا بد منه، وأن زوال الظلم وأهله بأجل وقدر محتوم.

» ومن الواقعية في الدعوة: المرحلية.

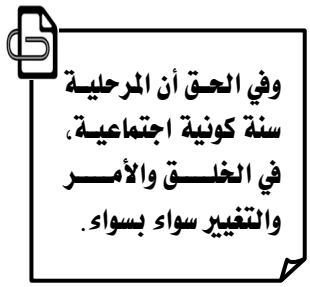

وفي الحق أن المرحلية سنة كونية اجتماعية، في الخلق والأمر والتغيير سواء بسواء، وأن الدعوة بعد عصور الأنبياء تنتصر بالسنن الجارية لا الخارقة؛ فينبغي أن تنضبط الدعوة في مسيرتها بمراحلَ لكل منها ما يميزها في أهدافها ومناشطها ووسائلها، من غير تعجل واعتساف في طيها، ولا تثاقل وتباطؤ في تجاوزها، وهذا من شأنه أن يحفظَ المكتسبات الدعوية الحالية، ويُكَثِّرَ المنجزات المستقبلية، ويُرَسِّخَ بنيان العمل الإسلامي بعامة.

» ومن الواقعية في الدعوة: التسديد والمقاربة.

ويبدو هذا المنطلق –جليًّا– عند استعراض مناهج الدعوة ووسائلها وأساليبها؛ بل وفي حكم الدعوة نفسه، فإن من واقعية وجوبها أنها تقسط هذا الوجوب وتقسمه على أفراد الأمة كل بحسبه، فلا يقوم بهذا الدين على وجهه الأتم الأكمل إلا رسول الله ﷺ، ثم تقوم الأمة به بمجموعها من بعده.

ومن قام بواجب بحسب وسعه كفى غيره هذا الواجب، وكفاه غيره واجبًا آخَرَ.

وبهذه النظرة الواقعية للدعوة وحقيقتها، وللدعاة وإمكاناتهم والفروق الفردية بينهم، يتكون من عموم الأمة وفي مجموعها دعوة متكاملة.

ومظاهر الواقعية تنشأ عن كلية الشريعة الكبرى في تحقيق المصالح وتكثيرها وتكميلها، ودفع المفاسد وتقليلها وتخفيفها.

وبمراعاة جانب الواقعية في أهداف الدعوة ووسائلها وأساليبها تنضبط مسيرتها وتنتظم المصالح في مسالكها، ويتحقق الرشد وينتفي الاضطراب والتعثر في مراحلها.

وبمراعاة جانب الواقعية في أهداف الدعوة ووسائلها وأساليبها تنضبط مسيرتها وتنتظم المصالح في مسالكها، ويتحقق الرشد وينتفي الاضطراب والتعثر في مراحلها.

وبإغفال هذا الأصل المهم وقعت الدعوة إلى الله في مآزقَ مختلفةٍ، وعلى مستويات عدة، فعلى سبيل المثال: قد يقال -فيما يتعلق بأهداف الدعوة-: إن هدف الدعوة هو إقامة حكم الله في الأرض وتغيير الواقع القائم. يقال ذلك من غير تفريق بين هدف بعيد وقريب، فتتجه الدعوة صوب هذا الهدف مباشرة باحثة عن وسائله، ومتمحورة حول مقدماته، ومتخلية عن أصول أخرى ومنطلقات وأعمال مهمة، مختزلة مسألة التغيير في محو نظام بعينه، فتمر السنون فلا الهدف يتحقق ولا الواقع يتغير؛ بل ويلحق بعضَ الدعاة فتورٌ؛ حيث عالج الهدف مرارًا فكان نصيبه الفشل.

ومكمن الخلل: أن الهدف لم تُراعَ الواقعية في رسمه ولا ظرفه، من حيث الزمان أو المكان، وكفاية العدة ونحو ذلك.

ولو قيل: إن هدف الدعوة تعبيد الناس لربهم جل وعلا وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، وأن هذا الهدف الشامل لا يتم إلا عبر مراحلَ وأهدافٍ قريبةٍ، تستوجب انشغالًا بالعلم والتربية والأمر والنهي، ونحو ذلك، وتنتهي بإعلان سيادة الشريعة وهيمنتها - لكان أولى وأنفع.

ويلتحق بعدم الواقعية في الأهداف ترك وإهمال تحقيق الهدف المتيسر في غمرة الاشتغال بالهدف المتعسر، فلا المتعسر تحقق -مع طول المحاولة- ولا المتيسر.

ويلتحق بعدم الواقعية في الأهداف تركُ وإهمال تحقيق الهدف المتيسر في غمرة الاشتغال بالهدف المتعسر، فلا المتعسر تحقق -مع طول المحاولة- ولا المتيسر. والأصل الفقهي: أن الميسور من التكاليف الشرعية لا يسقط بالمعسور منها.

» ومن الواقعية في الدعوة: التجديد والتطوير.

ومن الواقعية المطلوبة أيضًا التنويع والتجديد والتطوير في الوسائل والأساليب الدعوية.

فعلى صعيد وسائل الدعوة قد يصر البعض على وسائلَ معينةٍ لتحقيق أهداف ما لمجرد أنها جُرِّبت من قِبَل الرعيل الأول، أو في عهد المؤسس الأول، بغضِّ النظر عن كونها واقعية فعَّالة الآن، أم لا!

فتتحول الوسائل الاجتهادية إلى أمور توقيفية لا تقبل تغييرًا أو تعديلًا، من غير التفات إلى عدم التكافؤ الظاهر بين ضخامة الواقع وضآلة الوسائل.

وبالضرورة؛ فإن هذا التغيير الذي يمليه الواقع واعتبار الواقعية لا بد أن ينضبط بالتزام واستيفاء الضوابط الشرعية.

» ومن الواقعية في الدعوة: التدرج ومراعاة ممانعة النفس البشرية.

فإنها يصعب عليها التحولُ وتركُ الإلف المعتاد، وإن كانت تحب الله ورسوله، وما أحسنَ قوله ﷺ -في الإنكار على من سبَّ مَنْ يؤتَى به في الخمر

كثيرًا حيث قال له-: «**لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ إنه يحب الله ورسوله**»[1].

وأخيرًا.. فإنه ليس من الواقعية في قليل ولا كثير:

- الانحراف عن طريق ومنهج الأنبياء تحت ضغط ووطأة الواقع.
- التنازل عن الأهداف الشرعية أو اليأس من تحقيقها تحت مطارق الواقع.
- التراجع عن الاستقامة والربانية في الدعوة استجابة لمؤثرات الواقع.
- دنو الهمة والرضا عن واقع الأمة، وتبرير القعود بدعوى فقه الواقع.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨].

وقال جل من قائل: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

مذكرات وتعليقات

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب «ما يكره من لعن شارب الخمر» (٦٣٩٨)، ومسلم، كتاب الصلاة ومواضع السجود، باب «الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر» (١٨٠٧).

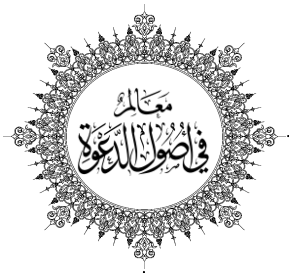

الأصل السادس عشر

16

إدارة الـدعـــوة

التعاونُ لنصرة دين اللّه، والاجتماع عليه واجب شرعيٌّ، ولا ينبغي أن يكون محلاً لخِلاف، وإن جرى الخلاف سائغًا في حكم الانتماء لطائفة متحزِّبة من طوائف الدعوة إلى اللّه تعالى في الواقع المعاصر.

وقد دلَّت على وجوب التعاون والاجتماع جملةٌ من النصوص الشرعية العامة والخاصة، والقواعد الفقهية والمقاصدية والأصولية، كما أنه حاجة واقعيَّةٌ، ومسألة فِطْرِيَّةٌ اجتماعيَّةٌ، وتَشْهَدُ لهذا وقائعُ السيرة النبوية وعهود السلف الصالح قولاً وعملاً.

وحقيقة التجمعات الدعوية: أنها وسيلةٌ لإقامة الواجبات الكفائية.

 وحقيقة التجمعات الدعوية: أنها وسيلةٌ لإقامة الواجبات الكفائية.

 ولا شك أن هذه التجمعات تتفاوت في طريقة إدارتها، وأسلوب توجيهها، ومسميات الوظائف فيها، إلا أنها -وعلى الجملة- لا تخرج عن قاعدةٍ وقيادةٍ، من خلال تناصُحٍ وتشاوُرٍ، ثم التزامٍ بطاعةٍ في حدودِ ما قامت لأجله هذه التجمعات، يكون هذا بين الشيخ والتلاميذ في التجمعات العلمية، كما يكون في مؤسسات الدعوة الرسمية، وجماعاتها الأهلية والشعبية.

» وإنشاء هذه التجمعات الدعوية يُشترط له شروطٌ، وتطلب فيه آدابٌ، ومن ذلك:

 ألَّا يُتحزَّبَ فيها على أصل بِدْعِيٍّ، وألا تَكْثُرَ فيها البدعُ الجزئية كثرةً تقوم مقامَ الأصل.

 وألَّا يُعقد الولاءُ على أساس من هذا الانتماء، وألَّا يقع التعصب للطائفة الدعوية دون غيرها.

 كما يتأكد تقديم مصلحة الأمة والانتماء إليها؛ على مصلحة الجماعة والطائفة والانتساب إليها؛ إذ الأول انتماء غاية والثاني انتماء وسيلة!

» وهذه الطوائفُ الدعوية تَتَفَاضَلُ وتتفاوت من حيث التزامها بمنهجِ وعقيدةِ أهل السنة، ومسلك وطريق سلف الأمة، وهي تتفاضل بحَسب شمولها وعمومها، وأثرها وعطائها، وانضباطها واستقامتها، واجتهاداتها وأنشطتها العملية.

» والأصل: أن تتكامل هـذه الجهـود الجماعيـة، وأن تتطـاوع هـذه الفئـات الدعوية؛ لتنـتهي إلى إخـراج أهـل الحـل والعقد في الأمـة، والذيـن يُفـوَّض إليهـم عمـومُ النظـر في التحـديات العامـة، والمصالح الكلية للأمة الإسلامية.

والأصل: أن تتكامل هذه الجهود الجماعية، وأن تتطاوع هذه الفئات الدعوية؛ لتنتهي إلى إخراج أهل الحل والعقد في الأمة، والذين يُفوَّض إليهم عموم النظر في التحديات العامة، والمصالح الكلية للأمة الإسلامية.

» وإذا كان الأصل هو وحدة الأمة والعمل الإسلامي؛ فإن قبول التعددية إنما هو مسألة مرحلية تَعْبُرُ من خلالها هذه الطوائف إلى صورة التيار العام، الذي يؤالف بين هذه المجموعات من غير اشتراط انحلال هذه التجمعات أو فَكِّ تلك الارتباطات، إنما الاتفاق على الأصول والقواعد الاعتقادية والعلمية، والتَّوَحُّد في القضايا العامة، والمواقف العملية المهمة.

وإذا كان الأصل هو وحدة الأمة والعمل الإسلامي؛ فإن قبول التعددية إنما هو مسألة مرحلية تَعْبُرُ من خلالها هذه الطوائف إلى صورة التيار العام.

- ومن خلال هذا المفهوم يُنْظَرُ إلى التعدد في طوائف دعاة أهل السنة على أنه تَعَدُّدُ تنوُّعٍ لا تَنَازُعٍ، وتَوَافُقٍ لا تخالُفٍ.
- وهو تعدد تَسُود فيه روحُ التعاذُرِ والتَّغَافُرِ في مسائل الاجتهاد التي جرى فيها خلافٌ، ومن خلال هذا الفهم يحصل التكاملُ والائتلافُ.
- وتتقيَّدُ الطاعةُ - في كلٍّ - بالمعروف، وفي كلِّ مباحٍ مشروعٍ، دون كلِّ محظورٍ ممنوعٍ.
- وهذه الأعمال الجماعية سواء أكانت عـلميةً أو تربويةً أو سـياسيةً أو

دَعَويةً -تَـمَسُّ حاجتها للسياسة الشرعية السديدة، والإدارة الدعوية الرشيدة.

فلا غِنى بالدعوات عن عِلْم الإدارة المعاصر، وعلم السياسة الشرعية لتكثير المصالح الدعوية، من انتظام الأعمال والإفادة القصوى من الرجال، وترشيد الجهود، وتنسيق المواقف العملية، وإقامة الشورى الإيمانية، وضمان انتقال الخبرات، وتراكم التجارب، واستمرار العطاء، وتحصيل أسباب النجاح والتمكين، وتَوَقِّي المعاطب، واجتناب المفاسد.

فلا غِنى بالدعوات عن عِلْم الإدارة المعاصر، وعلم السياسة الشرعية لتكثير المصالح الدعوية، من انتظام الأعمال والإفادة القصوى من الرجال.

وكل دعوة راشدة -تقوم على ركيزة عمل جماعي، وتتمتع بقبولٍ وإقبال جماهيريٍّ- لا بد لها من تخطيط دعوي، وتدريبٍ عملي، ثم يأتي العمل التنفيذي؛ ليأتي معه وبعده التقويم القياسي، والذي يعين على التطوير الذاتي.

وفيما يلي توضيحٌ لهذه المعالم:

» التخطيط الدعوي:

التخطيط عملٌ يراد منه الوصول إلى ثمرةٍ دعوية ناضجة، وتحقيق مصلحة شرعية راجحة، ولا يتأتى إلَّا بدراسة دقيقة لواقع وبيئة الدعوة بما يشمل الدعاة والمدعوِّين معًا، وتحديد الواجب في الواقع كَمًّا وكيفًا، مع العناية بالدراسات الإحصائية، والبحوث الميدانية؛ وذلك لتحديد أفضل الوسائل والأساليب الدعوية وأنجحها، وترتيب الأولويات

التخطيط عملٌ يراد منه الوصول إلى ثمرةٍ دعوية ناضجة، وتحقيق مصلحة شرعية راجحة، ولا يتأتى إلا بدراسة دقيقة لواقع وبيئة الدعوة بما يشمل الدعاة والمدعوِّين معًا.

العملية في ساحة الدعوة، ودراسة المحاذير والأخطار المحدقة بالدعوة؛ لاختيار طرائق النجاح، واجتناب المعوقات التي تفضي إلى الفشل.

ومن ثمَّ إعداد تلك الخطة التي تقوم على مراحل محددة؛ لتحقق أهدافًا معلومةَ الوسائلِ، واضحةَ البرامجِ، تنتهي إلى ألَّا تدعَ الدعوةُ نفسَها للسيرِ على غيرِ هدًى، أو أن تُدفَعَ إلى ما لا تريد من الأعمال أو الأعباء، أو أن تتحول مسيرتُهَا إلى مجموعةٍ من ردود الأفعالِ غيرِ المحسوبةِ أو المدروسةِ.

وإن الدعوةَ النبويَّةَ بسيرتِهَا ومسيرتِهَا لتؤكد على أهمية التخطيط الذي يقوم على الدراسة والإحصاءِ؛ فهذا يوسف عليه السلام يخطط لمواجهة السنين الشداد، ويضع الخطة الاقتصادية لمواجهة القحط والبلاء.

وإن الدعوةَ النبويَّةَ بسيرتِهَا ومسيرتِهَا لتؤكد على أهمية التخطيط الذي يقوم على الدراسة والإحصاءِ؛ فهذا يوسف عليه السلام يخطط لمواجهة السنين الشداد، ويضع الخطة الاقتصادية لمواجهة القحط والبلاء.

وموسى عليه السلام يخطط لدعوته، فيطلب وزارة أخيه؛ ليشد أَزْرَهُ، وليشركه في أمره، ويسأل الله أن يشرح له صدره، وأن يُطْلِقَ لسانَهُ بالحجة، ولَـمَّا تقاول مع ملأ فرعون، وطُلب إلى المواجهة والمنازلة خَطَّطَ لها وأَحْكَمَ أَمْرَهَا، بأن تكون في يوم اجتماعهم بأسرهم لتقوم الحجة على جميعهم، وأن يُحْشَرَ الناسُ في رائعة الضحى، فاختار الزمان في يومه وفي توقيته.

ونبيُّنا ﷺ يخطط لدعوته، فيأمر قائلًا: «**احصوا لي كم يلفظ الإسلام**»[1]؛ ليحدد إمكاناته البشرية، ويدرس الواقع المعاصر في زمانه،

(١) مسلم (١٤٩)

فيختار الحبشةَ مَهْجَرًا لأصحابه، وينبه إلى أسباب الاختيار، فيقول: «**فإن بها مَلِكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرضُ صدقٍ**» (١)، ويتخذ في طريق هجرته من الأسبابِ العجبَ العُجَابَ، ويختار أصلحَ مَنْ بحضرته من الرسل للقيام بالدعوة فيرسل مصعبًا إلى المدينة، ومعاذًا إلى اليمن، وحبيب بن زيد لمسيلمة الكذاب، ولما قيل له: إن الروم لا يقبلون كتابًا مع رسول إلَّا بخاتم، اتخذ خاتمًا نَقْشُهُ: «محمدٌ رسولُ اللهِ»، وَوَجَدَ أن المنبر أعونُ على ظهوره ليراه الخلقُ، فاتخذه بعد النظر والمشورة.

ما جاهد ﷺ ولا غزا إلا أعدَّ خطته، وهَيَّأَ عُدَّته، وأَحْكَمَ أمْرَهُ قَبْلَ أن يمضي لوجهه.

وهكذا ما جاهد ﷺ ولا غزا إلا أعدَّ خطته، وهَيَّأَ عُدَّته، وأَحْكَمَ أَمْرَهُ قَبْلَ أن يمضي لوجهه. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ما يدل على أهمية الإعداد المسبق والتخطيط المحكم.

» التدريب العملي:

إذا اكتمل شأن التخطيط وأُحْكِمَ أمرُ الإعداد فإن التدريب العملي يسبق التنفيذ الفعلي، والتدريب في ساحة الدعوة هو الذي يسد الثغرة بين الدراسة النظرية في الكليات والمعاهد الشرعية وبين الممارسة العملية في المساجد والمراكز الدعوية والمدارس والمحاضر التربوية والأعمال الإعلامية.

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام (٢/ ١٦٤).

وإذا كان الدخول إلى الساحة الدعوية بدون تدريب عملي مسبق اكتفاء بالدراسة النظرية أمرًا عجيبًا فإن الأعجب والأغرب من يكتب موجهًا وناقدًا دون أن يمارس أو يعالج شيئًا من ذلك اعتمادًا على شهادة أكاديمية فحسب!

ولا شك أن انفصال الجانب العلمي عن العملي مكمنٌ من مكامن الداء، وسبب من أسباب الخلل في الواقع المعاصر.

ولا شك أن انفصال الجانب العلمي عن العملي مكمنٌ من مكامن الداء، وسبب من أسباب الخلل في الواقع المعاصر.

ولقد كان أسلافنا الصالحون يدرِّبون ناشئتهم بين أيديهم في ساحة التلقي الأولى: المساجد، ففيها تتلقى العلوم النظرية، وترى وتسمع وتمارس التطبيقات العملية، فكان علم الدعوة تأصيلًا وتنظيرًا يتلقى مع عملها ممارسة وتطبيقًا بمشافهة الشيوخ ومخالطة العلماء، وبالممارسة بحضرة الكبار وبالتقويم الحاضر والتوجيه الناجز.

ومع تقدم في الزمان، وتبدل في الأحوال انفصل التعليم عن التدريب، وافتقر التنفيذ إلى التأهيل.

والداعية المؤهل هو الذي تلقى تدريبًا يمكِّنه من مواجهة الناس في المسجد إمامًا معلمًا، وفي الدرس مربيًا مرشدًا، وفي مراكز الدعوة والتأثير إداريًّا ناجحًا، وقائدًا ميدانيًّا موفَّقًا.

وبسببٍ من ضعف العناية بالتدريب يتحمل خمسة بالمائة من الدعاة عبء الدعوة ويبقى أغلبهم في مقاعد المتفرجين أو المعطلين، ولأجل هذا

وبسبب من ضعف العناية بالتدريب يتحمل خمسة بالمائة من الدعاة عبء الدعوة ويبقى أغلبهم في مقاعد المتفرجين أو المعطلين.

القصور تنكفئ الدعوات على نفسها أكثر من انفتاحها على غيرهـا بحيـث يصير الخطاب داخليًّا في معظمه.

 إن الدعوات الناجحة هي التي تحمل أبنائها على التأهل العلمي، وتضم إلى ذلك العناية بالصلاح الذاتي، والممارسة العملية، والوعي بالتراتيب والسياسات الإدارية والتنظيمية.

 ومن اللافت للنظر: أن كل أمر ذي بال لابد من تدريب ومِران عليه وتأهيل لممارسته، فسياسة الخلق وهداية الأنام قد تبدأ من رعي الأغنام، «**فما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم**» (١).

قال ابن حجر: قال العلماء «الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يُكَلَّفونه من القيام بأمر أمتهم» (٢).

 ولما أُمر ﷺ بمعالجة الخلق أوجب الله عليه القيام بدلًا من المنام وأنزل عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[المزمل : ١-٢] وعندها قال : «**مضى عهد النوم ياخديجة**». فلما نزل القرآن متتابعًا كان يدربه عليه جبريل عليه السلام ويراجعه معه كل ليلة في رمضان (٣).

 ومن قبلُ لما مضى قدر الله في موسى عليه السلام بالتصدي للفرعون الطاغية جرى تدريبه تدريبًا ربانيًّا، وتأهيله تأهيلًا إلهيًّا ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾[طه:٣٩]

(١) البخاري (٢٢٦٢)
(٢) فتح الباري (١٠/ ٥)
(٣) أخرجه البخاري (٦، ٣٢٢٠، ٣٥٥٤) ومسلم (٢٣٠٨).

فلما حانت ساعة البعثة، جاء خطاب التكليف متدرجًا من جهة ومدربًا من جهة أخرى فيؤمر بإلقاء العصا، ثم تنقلب أمام عينه حيةً تسعى، ثم يأخذها بيمينه فتنقلب إلى عصا تارة أخرى، ثم ينزع يده فتخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى، كل ذلك قبل أن يقع أمام الخلق؛ لئلا تُبْهِرَ روعة الآية موسى نفسه.

وفي سيرة النبي المصطفى ﷺ تدريب لأصحابه على الدعوة بين يديه وبعيدًا - أيضًا - عن ناظريه، فربما قضى بعض أصحابه أمامه وبإذنه، وربما عبر بعضهم الرؤيا بين يديه وبأمره.

وفي سيرة النبي المصطفى ﷺ تدريب لأصحابه على الدعوة بين يديه وبعيدًا -أيضًا- عن ناظريه[1]، فربما قضى بعض أصحابه أمامه وبإذنه[2]، وربما عبر بعضهم الرؤيا بين يديه وبأمره[3].

وبين يدي عمر تدرَّب أبو موسى على القضاء، وتحت ناظري عمر تعلَّم وتدرَّب شريح القاضي على أصول التقاضي، والفصل بين الخصومات.

ودرَّب أبو الدرداء أهل جامع دمشق على تلاوة وتجويد القرآن، وكان أهل حلقته في المسجد يزيدون عن ألف وستمائة [4]!

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨) ومسلم (١٩)، أخرجه أحمد (١/ ١٤٩) رقم (١٢٨٠ ـ ١٢٨٣) وأبو داود (٣٥٨٢) والترمذي (١٣٣١) والنسائي في الكبرى (٧/ ٤٢١) وابن ماجه (٢٣١٠) والحاكم في المستدرك (٤/ ٩٣) وقال الترمذي : حديث حسن. وصحح إسناده الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٨/ ٢٢٦) رقم (٢٥٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤٣) ومسلم (١٧٦٨)، أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٥) رقم (١٧٨٢٥) والطبراني في الأوسط (٢/ ١٦٢) رقم (١٥٨٣) وفي الصغير (١/ ٩٧) رقم (١٣١) والدارقطني في السنن (٥/ ٣٦٢) رقم (٤٤٥٩).

(٣) في الباب حديث أخرجه البخاري (٧٠٤٦) ومسلم (٢٢٦٩).

(٤) غاية النهاية (١/ ٦٠٦-٦٠٧).

وعلى هذا درج السلف الصالح فعرف في حلقاتهم العريف والمعيد، وهو الذي تدرب على إعادة درس الشيخ بعدَه للطلبة، وقد عُنِيَ المربون سلفًا بتدريب من يربونهم بالمخالطة والمشاركة، فتارة تكون التربية على القيام، وأخرى على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وثالثة على الدعوة والخطابة.

وهناك تدريب على المحاسبة والمساءلة، وتدريب آخر على انتهاز الفرص واهتبالها في ساحة الدعوة والنصح، وإذا كان للدعاة تدريب عملي ودعوي وعلمي فلا يمنع هذا من أن يكون لهم تدريب بدني وإعداد جسماني بالفروسية تارة، وبالعَدْوِ أخرى، وبالرمي والسباحة تارات. وهكذا لا يقوم عمل جليل إلا ويسبقه تدريب وتأهيل.

» التنفيذ الفعلي:

الخطوة الرئيسة في الإدارة : هي التنفيذ الذي سبقه تخطيط وتدريب.

 ومن معالم التنفيذ المهمة: التنظيم وحسن الإدارة، والدعوة التي تدير أعمالها بطريقة منظمة هي أحرى الدعوات بحسن استثمار الطاقات، وتوجيه الجهود لتحقيق الأهداف في أقل وقت، وبأكمل أداء؛ ذلك أن النجاح قرين النظام وأن الفشل ربيب الفوضى.

وكل عمل ناجح تقف خلفه إدارة ناجحة تحسن تحديد الأهداف وتحويلها إلى خطة ترسم بدقة

 وكل عمل ناجح تقف خلفه إدارة ناجحة تحسن تحديد الأهداف وتحويلها إلى خطة ترسم بدقة، وتوضع لها برامج يقوم بها رجال مؤهَّلون ومدرَّبون، وتتابعهم إدارة واعية تعلِّم وتشجع وتحاسب وتشاوِر وتشارِك في حل المشكلات وتجاوز العقبات.

وحقيقة الإدارة التنظيمية: أنها وسيلة ناجحة وأداة ناجعة في تحصيل المقاصد وإحراز النتائج. وكما هي موهبة فهي علم وخبرة، وفن ودُرْبَة.

وحقيقة الإدارة التنظيمية أنها وسيلة ناجحة وأداة ناجعة في تحصيل المقاصد وإحراز النتائج. وكما هي موهبة فهي علم وخبرة، وفن ودُرْبَة.

والإدارة الدعوية مطلوبة شرعًا طلب الوسائل لا الغايات، وهي مسئولية وتكليف، لا غنم فيها ولا تشريف.

والإدارة الدعوية مطلوبة شرعًا طلب الوسائل لا الغايات، وهي مسئولية وتكليف، لا غنم فيها ولا تشريف، وهي مطلوبة سياسة طلب الذرائع لا المقاصد، وكما تحتاجها الطائفة فلا يستغني عنها الداعية الفرد في تنظيم وقته وإدارة جهده لاتخاذ المواقف المناسبة.

والقائد الإداري: هو من جمع بين القوة والأمانة وبين الكفاءة والديانة، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص : ٢٦].

واستئجار الأقوى أولى، والقوة في كل ولاية بحسَبها، فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب والدربة على الطعنِ والضربِ والكرِّ والفرِّ، والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، والقدرة على تنفيذ الأحكام والأمانة ترجع إلى خشية الله، وأن لا يشتري بآياته ثمنًا قليلًا، وترك خشية الناس[1].

(١) فتاوى ابن تيمية (٢٨/ ٢٥٣).

«**والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير**»(١).

وإذا كان المؤمن الضعيف تتطلع نفسه إلى القيادة؛ فإن مَن حوله يجب أن يحموه إياها ويمنعوه منها، وإلا وقع الخلل ووقعت الفوضى، وقد قال ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه -حين طلبها-: «**يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا مَن أخذها بحقِّها، وأدَّى الذي عليه فيها**»(٢).

وفي العمل الدعوي الإداري حقوق وواجبات، إذ كل حق يقابله واجب، ولا تصلح مطالبة بالواجب قبل أداء الحق.

وفي العمل الدعوي الإداري حقوق وواجبات؛ إذ كل حق يقابله واجب، ولا تصلح مطالبة بالواجب قبل أداء الحق.

وفي العمل الإداري شورى تسدِّد الرأي وتقوِّم العمل، وقد قال تعالى -لنبيه ﷺ-: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وبهذا عمل النبي ﷺ مع الصحابة في المهمات كافة حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحدًا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ»(٣).

وفي العمل الإداري نفحة إيمانية تقدم القدوة، وتعلم الأسوة، وتحارب الهوى، وتحقق العدل، وترعى الأمانة، وتملأ الدعوةَ ربانيةً.

وفي العمل الإداري تقويم دوري، على أسس من الربانية والموضوعية،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٥)

(٣) علقه الترمذي بصيغة التضعيف بعد حديث (١٧١٤) ووصله عبد الرزاق (٥/ ٣٣٠) رقم (٩٧٢٠)وأحمد (٤/ ٣٢٨) رقم (١٨٩٢٨) والبيهقي في سننه (٩/ ٢١٨) وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٣٤٠) :رجاله ثقات الا انه منقطع.

لاكتشاف الخطأ وإصلاح الخلل، وضمان النمو استمرار العمل، وممارسة النقد الذاتي والتقويم القياسي علامة صحة وعافية في حق الأفراد والتجمعات كافة.

وفي العمل الإداري تقويم دوري، على أسس من الربانية والموضوعية، لاكتشاف الخطأ، وإصلاح الخلل، وضمان النموّ واستمرار العمل.

» وأخيرًا فإذا قال قائل: إن أزمة كثير من الدعوات المعاصرة هي أزمة إدارية فلن يكون قوله هذا بعيدًا عن الصواب ومجانبًا للحقيقة.

 ولعل توسيعًا في دائرة الكفاءات القيادية المتخصصة تربويًا واجتماعيًا وعلميًا وعمليًا يحقق انفراجًا لهذه الدعوات التي ربما أصيبت بعقم إنتاجي، وضمور جماهيري.

 ولعل مراجعة آليات صناعة القرار داخل مؤسسات الدعوة إلى الله وتعميق مبدأ الشورى، وتقوية التواصل بين القاعدة والقيادة يسهم في صناعة المواقف بطريقةٍ أصوبَ وأحكمَ وأسلمَ.

 ولعل التركيز على صناعة المؤسسات الدعوية والإعلامية بدلًا من بناء الرموز الفردية يكون أنفعَ للأمة من الاحتشاد خلف شخص أو رمز مهما كان أثره أو حجمه !

مذكرات وتعليقات

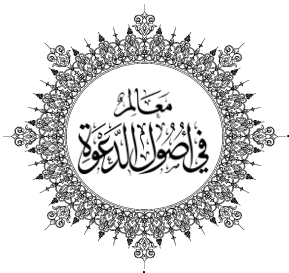

الأصل السابع عشر

17

رعـايـة الأولـويـات

رعـايـة الأولـويـات

ينطلق فقه الأولويات في مسيرة الدعوة والدعاة من قواعد السياسة الشرعية في إدارة الأعمال الدعوية، والمقاصد الكلية للدعوة الإسلامية، فهو إدراكٌ شرعيٌّ مقاصدي واقعي لرُتَب الأعمال وترتيبها نظريًّا وعمليًّا، وذلك من حيث الأهمية والتقديم والأرجحية.

وهذا الفقه علمه الله تعالى لعباده ببيان التفاوت بين الأعمال ورُتَبها؛ سواء أكانت صالحة أم طالحة. قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة: ٢١٧].

وقال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: ١٩-٢٠].

كما علَّم النبيُّ ﷺ رُتَبَ الأعمال الدعوية وما حقُّه التقديم منها؛ حين أرسل معاذًا داعيًا ومعلِّمًا، فقال له ﷺ: «**إنك تَقْدَمُ على قوم من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرْهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا صلوْا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من غنيهم فتُردُّ على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموال الناس**»[1].

وعن نبينا ﷺ أخذ عمر رضي الله عنه ما كتبه لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه موجِّهًا ومفقِّهًا، فقال رضي الله عنه: «إن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، افهم إذا أدلي إليك؛ فإنه لا ينفع كلمة حق لا نفاذ له، آسِ بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك»[2].

وعن كتاب ربنا وسنة نبينا قَرَّرَ العلماء قواعد الأولويات بين الضرورات، والحاجيات والتحسينات.

وعن كتاب رَبِّنا وسنة نبيِّنا قَرَّرَ العلماء قواعد الأولويات بين الضرورات،

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.
(٢) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ١٣٥).

والحاجيات والتحسينات، كما أَصَّلُوا للتفاوت بين الواجبات والمندوبات، والمحرمات والمكروهات، في ذاتها تارة، وعند التزاحم والتعارض أخرى.

وهذا الفقه الدعوي يقتضي موازنةً بين المصالح والمفاسد، ومقابلةً بين المنافع والمضارِّ عند التزاحم، كما يقتضي إدراكًا لمقاصد الشريعة ومعانيها الكلية التي لأجلها شُرعت الأحكام، والتي على أساسها تترتب مصالح الأنام.

 وجهات الأولوية متعددة متنوعة، فالأعمال المطلوبة من حيث الزمان تتفاوت رتبها بناءً على إدراك واجب الوقت، وفريضة العمر، وشَرَف الزمان والدهر.

كما تتفاوت من حيثية المكان، وما يتعلق به من عمل؛ رعايةً لفضله، أو تقديرًا لعُرْف أهله، كما تتفاوت من حيثية ما يطرأ من أمر استثنائي، أو يعرض من حال خاصة، أو ما يقع مما يعسر الاحتراز عنه، أو تعم به البلوى.

وكذلك فإن الأعمال والتصرفات -سواء أكانت قلبية أم قولية أم فعلية- تتفاوت في ذاتها، كما تفاوتت باعتباراتٍ من خارجها.

 فمعيار إدراك الأولويات في الدرجة الأولى شرعيٌّ، وميزان الترجيح بينها نقلي؛ إذ هو المصدر المعصوم والصدور عنه فرضٌ محتومٌ، ثم ما استند إليه من إجماع موثَّق، أو قياس محقق.

فمعيار إدراك الأولويات في الدرجة الأولى شرعيٌّ، وميزان الترجيح بينها نقلي.

ثم تأتي في الدرجة التالية المقاصد الشرعية والمصالح المرعية، ومصادر التشريع الثانوية؛ كسَدِّ الذرائع أو فتحها... وغيرها.

وأخيرًا تأتي المشتركات العامة؛ مِن تجارب الدعاة من لدن أنبياء الله وإلى اليوم.

وفقه الأولويات الدعوية له ركائزُ يقوم عليها تمثل معاقد الاتفاق وأصول الوفاق، وهي كالأصول المحكمات بين سائر الدعاة -أفرادًا أو جماعات- وعند التفصيل في إعمال التأصيل قد تتفاوت الاجتهادات، وتتنوع التخصصات، ومثل هذا لا تتفرق به الكلمة، ولا تَتَأَتَّى معه في الصف الإسلامي -بحمد الله- ثُلمةٌ.

ومن تلك الركائز والأصول المهمة ما يلي:

» **أولوية: إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد:**

وهذا قبل كل أولوية؛ فأول المأمورات وأولاها بالدعوة: توحيد الله تعالى، وأول المنهيات وأولاها بالإنكار: الشرك بالله.

فَخَوْضُ المعركة العقدية في الإصلاح والتأثير مقدم على خوض المعركة العسكرية في القتال والتغيير.

فَخَوْضُ المعركة العقديـة في الإصـلاح والتـأثير مقـدَّم على خـوض المعركـة العسكرية في القتال والتغيير.

فلا يُجَاهَدُ أهل الشرك والطغيان باليد والسنان إلا بعد جهادهم بالدعوة والحجة والبرهان.

فالأولويةُ للقضايا الكبار أمرًا ونهيًا، قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢] وقد قال ﷺ: «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**»[(١)] وقال ﷺ: «**إنه لن تدخل الجنةَ إلا نفسٌ مؤمنة**»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٩٢) من حديث ربيعة بن عباد رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (٣٠٩٢) من حديث علي رضي الله عنه.

» أولوية: حال السعة والاختيار: الجهاد التربوي قبل الجهاد العسكري:

فمَنْ خان حيَّ على الصلاة يوشك أن يخون حيَّ على الجهاد، ومن سقط أمام المعاصي والموبقات جدير أن يسقط أمام الأعداء وفي المواجهات؛ قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

وطريق التمكين لهذا الدين، وإقامة دولة الإسلام على الأرض يمر - ولا بد - بإقامتها أولًا من خلال النفل والفرض.

وطريق التمكين لهذا الدين، وإقامة دولة الإسلام على الأرض يمر -ولا بد- بإقامتها أولًا من خلال النفل والفرض؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥].

» أولوية: الرد إلى الأمر الأول:

ذلك أنه لن يُصلح آخِرَ هذه الأمةِ إلا ما أصلح أولها[1]، وما لم يكن يومئذٍ دينًا فلن يكون اليوم دينًا[2].

فالأمر الأول: «**ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[3]. فلزوم سبيل الصحابة

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية (٣٩٤).

(٢) من أقوال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الإحكام، لابن حزم (٦/ ٢٢٥). ط: دار الحديث.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (١/ ٢١٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

والتابعين ومَنْ تبعهم بإحسان هو منهج النجاة وسبيل الفلاح وطريق النجاح، و«إذا كانت سعادة الدنيا والآخرة هي باتباع المرسَلين؛ فمن المعلوم أن أَحَقَّ الناس بذلك هم: أَعْلَمُهُم بآثار المرسلين، وأَتْبَعُهُم لذلك؛ فالعالمون بأقوالهم وأفعالهم المتبعون لها هم أهل السعادة في كل زمان ومكان، وهم الطائفة الناجية من كل ملّة، وهم أهل السنة والحديث من هذه الأمة»[1]؛ «**فطوبى للغرباء**»[2].

» أولوية: الانتماء إلى أهل السنة قبل الانتماء لطائفة من طوائف الدعوة:

فالانتماء إلى الإسلام أولًا، وقبل كل شيء، قال تعالى: ﴿**هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾ [الحج: ٧٨] ثم الانتماء إلى السنة والنسبة إليها، قبل كل نسبة، وفوق كل راية؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات: ١٠]

«أهل السنة الذين ليس لهم لقب يُعرفون به، لا جهميٌّ ولا قَدَريٌّ ولا رافضي»[3]؛ فالولاء معقود على أساس الإسلام والسنة، وهو انتماء غاية، وليس على انتساب إلى طوائف الدعوة؛ إذ هو انتماء وسيلة، والمقصد والغاية يُقَدَّمَان على الوسيلة.

---

(١) مجموع الفتاوي (٣/ ٣٤٦).
(٢) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) من أقوال الإمام مالك، الانتقاء لابن عبد البر ص (٣٥).

» أولوية: التأصيل والأصالة مع التجديد والمعاصَرة:

فالعودة إلى الأصلين المعصومين هو منطلق كل دعوة صحيحة، والصدور عن عقيدة أهل السنة هو رأس كل منهجية سديدة.

فالعودة إلى الأصلين المعصومين هو منطلق كل دعوة صحيحة، والصدور عن عقيدة أهل السنة هو رأس كل منهجية سديدة، ونقل مصدرية الأحكام ومرجعيتها من الوحي المعصوم إلى الهوى المشئوم نقضٌ لعقيدة الألوهية ورِدَّةٌ إلى الجاهلية.

ومواجهة الانحرافات المعاصرة بتلك المنطلَقَات الثابتة أولويةٌ دعوية؛ فلا فرق بين انحرافٍ بدائي وآخَرَ حضاري، وكما تنكر منكرات القبور تُنكَر منكرات القصور، وتُوَاجَهُ تيارات الإلحاد والتغريب والعلمنة.

وتنبغي العناية بالتجديد والمعاصرة في وسائل الدعوة، مع الانضباط بضابط المشروعية، بعد تأكيد أنها اجتهادية.

ولا ينبغي الاقتصارُ على وسيلةٍ عامة دون خاصة، كما لا تختصر الدعوة في مؤسسات خيرية، أو هيئات اجتماعية.

التجديد في الوسائل لا يعني انفصالاً عن التأصيل ولا تحررًا من الثوابت والأهداف والغايات، ولا عبثًا بالأصول والمبادئ والمنطلقات.

وبكل حال؛ فإن التجديد في الوسائل لا يعني انفصالًا عن التأصيل ولا تحرُّرًا من الثوابت والأهداف والغايات، ولا عبثًا بالأصول والمبادئ والمنطلقات، وإنما المراد: أن يُقْبَلَ من الوسائل كُلُّ جديد إن كان نافعًا، ولا يستوحش من كل غريب إن كان صالحًا.

» أولوية: الكيف المنظَّم على الكم المبعثر:

لم تُـمدح كثرة لذاتها؛ بل ذُمَّتْ إذ كان أصحابها لا يفلحون، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٦]، وقال تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣] وقد مُدحت القِلَّة المؤمنة حيث كانت شاكرة، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ومكن لها إذ كانت مستضعفة، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦] وغَلَبَتْ عدوَّها بإذن ربها؛ قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

والقلة المنظمة المحكمة لأمرها تنتصر ـ بإذن الله ـ على الكثرة المبعثرة في عملها.

والقِلَّةُ المنظَّمةُ المحْكِمَةُ لأمرها تنتصر -بإذن الله- على الكثرة المبعثرة في عملها، وأولوية الدعوات مع التركيز في جذور البناء قبل التوسع والانتشار في الفضاء، «**ولن يُغلَب اثنا عشر ألفًا مِن قلَّة**»[1].

» أولوية: التدرج والمرحلية:

المرحلية والتدرج سنة كونية اجتماعية في الخلق والأمر والتغيير سواء بسواء، ولا شك أن بالساحة الدعوية ضروراتٍ تلجئ إلى مرحلية، وبالتشريع

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦١١)، والترمذي (١٥٥٥)، وأحمد (١/ ٢٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

سوابقُ وشواهدُ تنبه إلى التدرج، وبالمجتمعات مخالفاتٌ مستحكمة وأهواء متمكنة تقتضي في إزالتها فقهًا يُقَدِّمُ ويُؤَخِّرُ، وقد عَلَّمَ النبي ﷺ في سنته بقوله وفعله أن الفرائض قبل النوافل، وأن العقيدة قبل غيرها، وأنَّ المنكرات الكبار والبدع المغلَّظة تنكر أولًا، وأن التربية الربانية تمرُّ بمراحلَ متعددةٍ، لكل منها ما يميزها في أهدافها ومناشطها، وأن كل مرحلة تطوى في وقتها من غير تعجُّلٍ أو اعتسافٍ في طيها، أو تثاقل وتباطؤ في إنجازها.

فالتدرُّج في التنفيذ والعمل من شأنه أن يحفظَ مكتسبات الدعوات، ويكثِّرَ المنجزات.

فالتدرُّج في التنفيذ والعمل من شأنه أن يحفظَ مكتسبات الدعوات، ويكثِّرَ -في المستقبل- المنجزات، وبإهمال هذه الأولوية وقعت الدعوات في مآزِقَ عمليةٍ فمرتْ بها السنون؛ فلا هدف تحقق، ولا واقع تغير، وربما دَبَّ الفتور وتسلل اليأس والملل.

وما أحسنَ مقالةَ عمرَ بنِ عبد العزيز لابنه حين قال له: «لا تعجل يا بني؛ فإن الله ذمَّ الخمر في القرآن مرتين وحرمَّها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه جملة، ويكون مِنْ ذا فتنة»[1].

(١) الموافقات (٢/ ١٤٨). ط دار المعرفة.

خاتمة

وبعد.. فإن ما مضى من أصول الدعوة وسماتها - على أهميته - لا يغني عن أصول أخرى، كالمرحلية، والوسطية، والتضحية، وغير ذلك، ولم يكن من القصد تتبع جميع أصول الدعوة ومنطلقاتها، على أن مثل المرحلية والوسطية والتضحية مستصحَبة في العلم والأمر بالمعروف والتربية ونحوها من الأصول.

ولعل الله تعالى أن يهيئ استكمالًا لهذه المعالم، وأن ييسر بشرح وتفصيل لهذه الأصول، يجلِّي مسائلها، ويظهر دلائلها.

هذا وقد أردتُ بما كتبتُ النصحَ؛ فأسأل الله تعالى أن يتقبله بقبول حسن، فيكتب لي به أجرًا، ويصحِّح به فهمًا، ويقوِّم به عملًا، ويسدِّد به

خللًا، وينشر به خيرًا؛ إنه جواد كريم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

اللّٰهُمَّ يا من أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، ووسع كل شيء رحمة وحكمة، ألِّف بين قلوب المؤمنين، ووحِّد صفوف المسلمين، ووفِّق العلماء والدعاة المحتسبين المتبعين، واسلك بنا سبيلهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللّٰهُمَّ هذا جهد المقلين وبضاعة المقصرين المفرِّطين، وأنت أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، هب نقصنا لفضلك ومزيدك، وهب تقصيرنا لرحمتك وإحسانك، فما كان من صواب فبتوفيقك ولك المنة، وما كان من خلل أو زلل فمن جهلي وغفلاتي وشيطاني، وعليَّ التوبة، وأستغفر الله منه، وأنا عنه راجع في حياتي وبعد مماتي، ورحم الله من أهدى إليَّ عيبًا، أو أسدى إليَّ نصحًا، ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفـهـرس

مقدمة الطبعة الأولى ٥

مقدمة الطبعة الرابعة ١١

الأصل الأول: الربانية ١٥

الأصل الثاني: التوحيد الخالص والاعتقاد الصحيح ٣٧

الأصل الثالث: الإخلاص ٥٥

الأصل الرابع: الاتباع ٦٥

الأصل الخامس: العلم ٧٩

الأصل السادس: التربية والتزكية ٩٣

الأصل السابع: الوعي والبصيرة بالواقع ١٠٧

الأصل الثامن: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١١٧
الأصل التاسع: الجهـاد ١٢٧
الأصل العاشر: البلاغ المبين..... ١٣٧
الأصل الحادي عشر: الحكمة ١٥٣
الأصل الثاني عشر : الشمول والتكامل..... ١٦٧
الأصل الثالث عشر: الوحدة والائتلاف ١٧٣
الأصل الرابع عشر: العالمية ١٨٣
الأصل الخامس عشر: الواقعية..... ١٩١
الأصل السادس عشر: إدارة الدعوة..... ١٩٩
الأصل السابع عشر: رعاية الأولويات ٢١٥
خاتمة..... ٢٢٧
الفهرس ٢٢٩

تم بحمد الله